





# الطائر الحائر

جميلة محمد العبداني

١٩٣٥

---

مطبعة وادي النيل بميت عمر

## تحية

أهلاً « جميلة » بالحياة كما رأت عيناك  
فيها معان تستطاب فأيتها معنك ؟  
حللت ألوان المحبة والجمال الأسر  
وشرحت قصة طائر بين المفاتن حائر  
ووصفت أطراف التناجي والعذاب القاسي  
ومظاهر الحرمان والآلام بين الناس  
هذي هي الدنيا كما صورتها للفنّان  
لهفي على الزهر الجميل من الهجير القاتل !  
لا يسأل الفنان عن آرائه ورجائه  
بل يسأل الفنان عن إعجازه بأدائه  
وأراك فاتنة العواطف بالخيال الساحر  
أنفاس شاعرة لها أنفاس وحي الشاعر

أحمد زكي أبو شادي

الاهداء

الى ...

أبناء النور والحياة

ودعاة الاصلاح وأعداء العبودية

وربات الفن اللائى يوحين إلى كل معنى سام



# تذكير

زارتني منذ أيام صديقة تحبني حبا جما : زارتني وقد  
رسم الحزن العميق على محياها سمات الألم الدفين ، فاضطرتني ذلك  
إلى تعرف دخيلة نفسها وإن كانت هي بعد أن هدأت بجوارى  
وأنست بي لم تر غضاضة في أن تبثي خيئة نفسها عل في البث  
ترفها وارتياحا

وقبل أن أفضى اليك بحديث الصديقة ، أريد أن أصور  
لك في غير مبالغة صورتها لتبدو أمامك القصة في ضوء أوفى ،  
وصراحة أبهى ، وإني لأستميحها العذر في اظهار سرها الدفين  
وعصارة قلبها الأليم وشفيعي لديها تلبية نداء الفن الذي وقفت  
حياتي ، وجهودي عليه

وان ثقتي برحابة صدرها ، وسماحة خلقها لكفيلة لي بأن  
أصرح بحديثها دون خشية عليها أو حذر منها

والآن وقيل أن أخلق دنيا القصة أحب أن أصور لك  
الصديقة بطلتها . هي هادئة وديعة ، تشملها عاطفة شفافة بريئة  
وهي الى جانب ذلك محبة ولوعة ، حساسة القلب ، يقظة الروح ،  
سليمة العاطفة ، ولكنها لا تصطنع الحب ولا تتكلفه ، أغنى  
أنها تحب كل ما يروقها في أى كائن وكأن في هذا الكائن ناحية  
من نواحي نفسها وإن روحها لتصبو الى استقرار الكون  
على تباين مظاهره ، على حين أنها لم تخط ربيع الحياة ، وإن كانت  
قد هدفت الى الكهولة ، يقظة عقلها ، ونضوج تفكيرها ، أما  
جمالها فإن عارفها يعتقدون أن الرقة حبتها سرها ، والأنوثة الجذابة  
تقمصت روحها ، والفتنة شملت بسماتها ، والسحر فاض من كل  
جانب فيها . رغم أن حدود الجمال لديها لا تتعدى القياس المألوف  
ولست أميل الى تفصيل الجمال حتى يبدو أمامك في الزى على آخر  
طراز من الجمال ، فلكل إمريء زى من الجمال يألفه ، وصورة  
من الاشكال يهيم بها ، ويصبو اليها ولكني أقفك من جمال  
الصديقة على اللباب ، وهذا هو السر المخبوء وراءها . السر الذى

بحلو لك تعرفه واستكناحه أما عاطفتها ، فكالنبع يفيض من  
جميع نواحيها ، وانها لشقية بهاته العاطفة الشاملة الغامضة ، فاذا ما  
رزقت نعمة القرب منها يوما فقد تدرك أنها محبة محبوبة ، أما أنها  
محبوبة فهذا ما لا شك فيه ، وأما أنها محبة فهذا ما تأمله وتسعى اليه  
ولقد طافت بروحها في سماء الأحلام وهامت بكثير ممن هم وراء  
سماء الخيال ، ولكنه الهيام الذي لا يدرك ، الهيام الذي يوايتها  
عن طريق فن تألفه كالوسيقى أو التصوير أو الشعر أو الأدب ،  
ولعل هذا الحب الفني يملك عليها أمرها فلم يترك قلبها يحوم في  
فضاء احلام العذارى كما أنه حملها على الاعتقاد بأن من الطيش أن  
تندفع المرأة وراء حب مادي ، لا يسمو بالنفس أو يمنحها قوة  
تدفعها الى النعيم الدائم والخلد المقيم وهي مشغوفة بأن تفكر في  
طلاقة ، وتكافح في حرية حتى تبلغ مثلها الفني الرفيع ، غير آبهة  
بنقد جاهل أو لوم متجن ، وهي طفلة كبيرة تجنح دائما الى  
المرح والحزن معا فقد ورثت عن أمها الحزن الدفين والعطف  
الرزين ، والخطر الكامل والطهر الشامل



وفورثت عن أبيها حب المرح والحياة والكبرياء والأتفة وقد  
تعجب كيف تجتمع الكبرياء الى السذاجة والهدوء الى الثورة  
والتحفظ الى الدعابة والثورة الى اللين ، ويحسن أن تعلم أنها على  
جانب لا يستهان به من الثقافة الروحية وأن هذا الجانب الروحي  
يفوق علمها المكسوب وهى ذكية الفؤاد ناضجة الفكر فسيحة  
الخيال قوية العاطفة .

نشأت فى بيئة مصرية صحيحة وفى بلدة يقولون عنها إنها  
مدنية العلم والنور ، ولكنها ألفت الهدوء وأحبت الوحدة . كما  
عودتها أمها ، ولقد أهاب بها هذا الهدوء وهاته الوحدة الى الفكر  
والخيال . الخيال الذى حملها الى الطبيعة ، والطبيعة التى دفعتها الى  
حب الفن العتيذ حباً ملك عليها حواسها حتى أصبح وكأنه شئ  
محسوس ماموس ترغب فيه وتنشده ، وقد سطى هذا الحب على  
الروح المادية فيها فقتلها فتعلقت بأذيال الجمال والحرية وان  
اعتقادها فى الزواج ليخالف ما تواضع عليه الفتيات جميعاً فهى لا  
تنظر الى الزوج من حيث غناه أو فقره ولكنها تطمع فى أن

يجبها الحب كله ، تطمع في أن يكون ذكى العقل كامل الرجولة  
قوى الحجة حساس المشاعر قادراً على أن يهسىء مستقبله كما ترجو  
هى له وما ترجو له الا أن يكون أعظم رجال العالمين وهى تعتقد  
أن فى قدرة المرأة أن تخلق الرجل خلقاً جديداً ، بل أنه ليحلوا  
لها أن تكافح فى سبيل تحقيق مثله وإلا فما وظيفة المرأة فى المجتمع  
البشرى اذا كانت حياتها لا تتميز عن حياة الحيوان الولود ؟...

يجب أن يكون لها رسالة خالدة تؤديها عن طريق نفسها  
ان استطاعت أو عن طريق الرجل الذى قدر له أن يشاركها الحياة  
وعلى هذا الأمل ومن أجله تعيش فى محيط هذه الحياة .

أما بعد : فلك هى صورة الصديقة بطلة « الطائر الحائر »  
ولعلها أروح مما ذكرت ، فقلبها المليء بأسرار الكون لا يبيح  
لأى انسان أن يسبر كنهه أو يدرك مداه .

وحسب القارئ العزيز تعريفاً ببطلة القصة ، هذا الرسم  
الطائر بما فيه من خطوط وألوان وظلال .

« جميلة »

## قالت صديقتي :

دعنى صديقة أعرف بميولي ، وأحب الى نفسى من  
غيرها الى نزهة خلوية وكانت طبيعتى في ذلك الحين خامدة  
بها عزوف عن المرح والعمل لذلك لم أر غضاضة في مراقبتها  
تلبية لمشيئتها فعسى أن أجيد في اجتلاء المناظر ومشاهدة  
مباهج الطبيعة الفاتنة ما يرفه عن نفسى ويمنح بها الى حرية  
الفكر . ولقد كان بصحبتنا فى هذه النزهة أخوها وخطيبته  
ذهبنا جميعاً الى حديقة غناء اختارها الأخ لقلّة اختلاف الناس  
اليها كثيراً ومع أنها كانت أشبه بالمهجورة فقد كانت على  
احسن طراز للحدائق الغناء وكم فى الحدائق من معانٍ  
للجمال والسحر والفتنة ! فالطبيعة وحدها على ما أظن . هى  
مصدر الفن وحسبها أن توحى لنا بما وراء الجمال الذى لا  
يدرك ولا يحمد . الجمال الخالد فالسماوات تملو الطبيعة غيرها

في كل مكان فهي تنقل إلينا رسالة مليئة بالسرار ولوانها  
اسرارها مطراً حاكّت هاته الأمطار . قطرات تبدو كأنها  
لا شيء ولكنها تملأ الأنهار لتروى كل ظمىء من الناس  
والحيوان والأطيار .

إن الطبيعة معجزه الله بلا ريب . معجزة صامته  
الحانها ومعانيها في أرج نسيمها ، وفي عطر ورودها ولعلها  
تحيات مليئة بالبهجة والمسرة والأمل ترف علينا في شبه  
نسمات سيقّت من قبل الأله الجليل لتزيد في نشوة الضاحك  
المجدود وترفه عن البائس المنكود .

أجل ترفه عنه بهذه الأشجار التي انكشفت عنها  
الطبيعة بين ساعة فرح تحت ضوء الشمس البهيج وبين ساعة  
حزن في كنف الظلام فجاء بعضه مزهراً بأغصانه وثماره  
وبعضه يماثل الحرمان في عمره ومآله .

وهكذا لبثنا بعض الوقت نمرح غير عابثين ، ونتسامر في  
أدب رزين ، ولقد أحسست أنا وصديقتي برغبة في الانفراد



تختلج بصدر الخطيبين فأفسحنا لهما المكان حتي يتمتعا  
بنسمات الحب السني وليحتفلا على انفراد بساعات من عمر  
الخطوبة الهنيء . ورغبت الى صديقتي أن نختفي لنمرح كما  
يحلونا في طلاقة الطفولة التي فاتنا عمرها ومازلنا نحن اليها  
ونرغب فيها . وهناك في كنف بعض الأشجار وتحت ظلالها  
المتناسفة في تألف جميل بدأنا نتلهى بالتندر والمداعبة آنأ  
وبالتحدث آنأ آخر ولكن سرعان ما هرول الينا الخطيبان  
كعصفورين وديعين على وجه كل منهما ظاهرة تخالف  
الأخرى ، لقد كانت الخطيبة كثيرة المرح لينة الدعابة تلتمع  
في عينيها أضواء الحب المتقد ويرف على شفيتها سحر بسمة  
تكاد تنطق بعذوبة الأمل الجميل وهي فوق ذلك على حظ  
كبير من سحر الأنوثة وجمالها كما أن السذاجة كانت تعلو  
جيدنها وتبدو في ألفاظها لأنها لم تنل من التعليم قسطاً وفيراً  
أما خطيبها فكان على عكسها ، فقد نال من التعليم  
أقصى ما يناله الشاب في مصر ، حتى غدا ناضج العقل معتداً

بنفسه لا يلتفت ظاهره عيون الحسان اللاتي يألفن جمال  
الرجل وهو سريع اللقطة والنظرة هادئة النفس ، دائم  
الصمت والتفكير ، وقاما يؤخذ بظواهر الأشياء ، ولكنه  
عذب النكتة حلو الحديث ، يحب الطبيعة ويتحدث دائماً  
عن مفاتيحها بلباقة فائقة ، وكم كان يتمنى أن يكون فناً كما  
يعترف ، فيصور كل ما يحلوه ، ولكن الحياة كانت عليه  
جذبة ، فطغت على مواهبه في بدئها على حد تعبيرة ،  
وصرفته مرغماً عن نواحي الحياة الفنية الى أضواءها المادية ،  
وها هو اليوم يعاني من كبت أحاسيسه الملمة مبرحاً لا قبل له  
على احتمالها ، ولعل هذه الظاهرة الأليمة التي تملك عليه حسه  
هي من قبل حرمانه الفني ، ولم أجد مندوحة من تعرف ما  
صعب على ادراكه عن طريق الأخت فعند ما خلوت بها  
سألتها ، ما الذي حمل شقيقك على مجانبه خطيبته مع أنك  
قلت على ما أذكر مرة أنه خطبها عن طريق الحب ؟ فكيف  
تعرف بها ؟ فتلقت قبل أن تجيبني يمنة ويسرة كأنها تخشى

اباحة سر أو شبهه ، وبصوت خفيض كالخذرة قالت : في  
مساء يوم كان أخى في طريقه الى منزله وعلى ما يذكر كان  
الظلام شاملاً والدنيا يكتنفها سحر الهدوء وبيننا هو جاد في  
طريقه حملت اليه أجنحة ذلك الهدوء صدى موسيقى سحرية  
خافتة حملته على مواصلة السير متبعاً مصدره حتى بلغ نافذة  
ينبعث منها ضوء خفيف له روعة فنية ، استوقفه هذا المشهد  
فظل واقفاً ساهماً يستمع الى الموسيقى بقلب ذاهل ولولا  
الشرطى الذى نبهه لنسى نفسه وما زلت اذكر صورته  
المهيبة فى هذه الليلة عندما دخل علينا فقد بدا أمامى كأنه  
ضيف غريب يطوى بين جوانحه مرآ غامضاً ومنذ هاته  
الليلة تغيرت أحواله وأحب الخلو بنفسه ومع أنى كنت  
أرى فى عينه ما يضطرم فى صدره ولكنى كنت لا أجرو  
على التدخل فى شئونه لأنه لم يعودنى ذلك ، وأخيراً طلب  
الى أمه أن تخطب له « بنت فلان » أغنى هذه الفتاة . وتم  
له ما شاء وكأنه امتلك ناصية الكون فكان أبداً فرحاً

راضياً عن دنياه ، وذات مساء ذهبنا جميعاً لزيارة الخطيبة  
وكانت هذه أول مرة يلقاها الخطيب فيها بعد اعلان  
الخطوبة وطلب منها أخى أن تعزف له لحناً . فأبت زاعمة  
أنها لا تجيد العزف فظن أخى ذلك التمتع منها خجلاً وحياء  
فألح وألحف وظل بها حتى حملها علي العزف . وما كادت  
تداعب اوتار المعزف بأناملها حتي تملكنا شبه ملل . لأن  
عزفها كان اشبه بنقر النحاس وفي هاته اللحظة جاءت زائرة  
فانتشت العروس وقدمتها لنا قائلة : « معامة الموسيقى »  
وطلبت ان تعزف لحناً ترضية للخطيب . وما كادت اصابعها  
تداعب اوتار المعزف حتي انتقلت بنا جميعاً الى عالم سحرى  
فاتن واستطاعت بمهارتها ان تداعب قلوبنا جميعاً وبذل ان  
يستمتع اخى استأذن وانصرف وحده وقد لمحت شبه غمامة  
انتشرت على وجهه لم افهم معناها . ومن هذا التاريخ عاد  
اخى غير مرح كما كان من قبل ، وتضاءلت مشاعره  
وتلاشت عواطفه او كادت ، ولزم الصمت الأليم ، وبات

لا يحدثنا عن الزواج والعرس كما كان يفعل من قبل .  
بدت الحقيقة امامي رهيبة فاستويت بعد ان كنت  
مضجعة على العشب وقدتها الى مكان آخر بعيد ثم همست  
في اذنها : عله احبها من اجل الموسيقى . فاما اصطدم  
بالحقيقة تضائل حبه لها ولعلها جادة في التعليم على ما اظن  
وغدا تكون عند حسن ظنه بها وخير له ان يفكر عن طريق  
عقله وقلبه ولا يترك حرية التصرف لخياله . وهنا لمحتهما  
مقبلين ، فتضاحكنا كأنا تتسافر في حديث لا شأن لهما  
به ، واستويت مسرعة أرحب بمقدم الخطيبة ولكنها قبل  
أن تجيبني خاطبني هو : لم تركتنا هناك وجئت الى هنا ؟  
قلت : لنترك لكما مجال الحرية واحسبنا مخطئين في ان  
نرافقكما في وقت انما احق فيه بالخلاوة والانفراد . فعمر  
الخطوبة كما يقولون اهنا الأعمار . ومن العبث ان يسهو  
الخطيبان عنه حتى يمر فلا ينالا منه ما يحملوهما من هناة ولم  
أكد انتهى من قولي حتى نظر إلى نظرة عميقة فهمت منها



بعض ما يعتلج بصدرة وقد تغافل عن دعاة الخطيئة التي  
لمست كتفه في رفق ونظرت اليه في حنان ثم ابتسمت في  
براءة وخاطبته : إن الحق ما نطقت فلعلها مخطوبة و ...  
فقاطعها موجه الحديث الي : أحقاً ذلك ؟ فقلت في حياء ،  
كلا . وكأن هذا النفي قد أَرْضاه فابتسم في غبطة ثم نظر  
الى نظرة أخرى فهمت منها ما يضره ولا يقدر على التفوه  
به وإن عين الرجل كثيراً ما تكون أسبق الى التعبير من لسانه  
وابتعد عنا قليلاً فظنناه يريد أن يتمشى وحده ولكنه عاد  
ويده زهرة بيضاء وفي ابتسامة غامضة قدمها الى فابتسمت  
كذلك في غموض وقلت : أئجل الرجل ، هأنذا لأول  
مرة أعرف ذلك ! أو تريد أن اكون واسطة بينك وبين  
عروسك ؟ ثم مددت يدي بالزهرة اليها . فقال : بل اقدمها  
اليك لتصفيها قلت : انظر الي عروسك تكشف لك ما  
خبأته الزهرة ! إنها تحاكيها . قال : لسنا في مجال مناظرة  
ولكننا في مجال مواجهة قلت : أوه . فاتني أنها زهرة خالية

من العطر وعروسك وردة لها عطر ولعلك خشيت أن  
يسرى العطر من الورد الى الزهرة إذا لامسه وأنت تريد  
ان يكون العطر لك وحدك أليس كذلك ؟ ونظرت إليه  
كأنى أقول له : صدقنى ! قال ليكن ذلك أو غيره ولكنى  
أرجو ! قلت : أن تحفظ لك وردتك عيبرها .

فاغتاض منى كما بدالى وقال بصوت متواضع : يا آنستى  
فابتسمت وقلت : لا تغارى ! أتحسبنى كذلك ؟ لا تظن !  
فأسند ظهره على جذع شجرة وارفة كانت بالقرب منه ونظر  
محلّقاً فى الفضاء ثم رد نظره عاجلاً وقال بودى أن اكون  
طائراً وقبل أن أجيبه قالت الخطيبة : لو كنت طائراً كما تروم  
لرجوت ان تكون إنساناً فلم يأبه لردها وظل ناظراً الى مترقباً  
كلامى . قلت وأنا أنظر الى الخطيبة وأوجه اليها الحديث  
وهكذا كل ممنوع محبوب ثم التفت اليه وقلت : وردتك  
تعرف الحقائق فارتشف من منهلها لتصل الى محط الحكمة  
عن طريقها . فبدت على وجهه علامة عدم الارتياح وقال

بصوت خفيض وردتي . وردتي . فنظرت الى العروس  
وخاطبتها . الا تجيبين ؟ انه يناديك فتخضب وجهها ومالت  
في دل فائن ثم نظرت إليه في استحياء يكاد يقتلها ، ولكنه  
تجاهل نظراتها وراح ينظر بعيدا كالطفل الذي يبحث عن  
نقطة ارتكاز السماء وكنت قد وليت وجهي وحاولت النظر  
بعيدا حيال خاطر طاف برأسي ولكنه انتشلى من خاطري  
بقوله أعتقد أن المرأة تحب الطيور كحب الرجل للزهور  
والورود . قلت وقد نسيت نفسي ، المرأة تحب الطير ،  
لأنه قادر على تبليغ الرسالة العاطفية عن الزهر والرجل يحب  
الزهر لأنه يألف صمت المرأة وحياءها ، قال ولكن هل  
كل الطيور محبوبة قلت قد تكون كلها محبوبة لأن لكل  
فتاة مزاجا خاصا ، فانا مثلا أحب الطائر الغريد الذي يألف  
الفضاء الواسع فيظل محلقا دائما لا يهبط الى الأرض ، اما  
الطائر الذي يهبط ففي يقيني انه اضعف الطيور ، فبدل ان  
يحبنى اشار ييده الى السماء وغمغم بكلمات خافتة لم ادركها ،

وتركنا وسار وحيدا في طريق معوج مليء بالحصباء ودقاق  
الحصا فاستوقفته عروسه وقالت هذه الطريق وعرة فأجابها  
دون أن يلتفت اليها إنه ليحلو لي ان أقطع الطريق الوعة  
لأعرف معنى الحياة ، قلت وأنا ما زلت في موقفي ، ولكن  
الحياة بقرب عروسك أروع مما عداها قال حسبك وتخلص  
في غير لطف من ذراع خطيبته وعدا بعيدا ، فاقتربت من  
الخطيبة وهمست في أذنها ، ألا تتبعين خطيبك ، إنه يدعوك  
في حياء ، فتبعته دون كلمة تتعثر في ثوب الخجل والخلاء ،  
ولكنها عادت مسرعة والدمع يترقرق في مآقيها قلت ماذا  
بك ، قالت انه غاضب يأبى مكالمتي ، فقالت شقيقته عجباً ،  
عالك أثرته عليك قالت لا ، جئته فوجدته مطأطئ الرأس  
ولما خاطبته تأفف مني ولم يجب ، قالت شقيقته هيا نذهب  
اليه لنتعرف الحقيقة ، ولما انتهينا اليه لم يأبه ، ودنونا منه فلم  
يلتفت وسألناه فلم يفه وتأوه في سكون ، قلت وأنا احاول  
ان اكون كالطفلة البلهاء ، في عينك دموع أتبكي ؟ عجباً

وقاطعتني شقيقته وخطيبته أمريض أنت ؟ قال ليتني وهو  
يصدق نظره في قلت إذن علام ؟ قال سلى الطبيعة تنبيك  
قلت ولكنى أسألك ، وواريت نفسى خلف بسمة مغتصبة  
ثم استطردت ، كان فى مقدورك ألا تصحبنا إن كان تمت  
أفكار تلهيك وفى مقدورنا أن ننسحب ونترك لك هاته  
الطبيعة الفاتنة لتنعم بها بقرب عروسك الساحرة فتأفف وقال  
أما يكفيك ؟ قلت إن عيبي هو صراحتي ولا قدرة لي على  
ملافاة هذا العيب خاصة فى مثل هذه الساعة ، وأنت شبه  
حزين وعروسك من فرط الحزن عليك تكاد تبكى وشقيقتك  
من هول اللوعة قد خاها النطق وما أنا إلا معبرة عنهما لا أقل  
ولا أكثر ، وأن الرحمة تقضى بأن ترعاهما وقد جئت بهما  
لترفه عنهما متاعب الحياة المنزلية الشاقة الخائفة فلماذا تبدل  
كرمك سخطا وإنه ليجميل بك أن تلاحظ عواطف الأنوثة  
الرحيمة فتكلف بسمة وقال أو تعرفين العاطفة قلت بلا زيب  
قل ليتك قلت هل أخطأك الحزن أم أخطأك النظر ؟ واحد



من اثنين ، اما أن يكون نظرك مخطئا فخاطبتني أو خاطرك  
طاف بها وظننتني إياها ثم حنوت على العروس وربت على  
كتفها وقد كانت تائهة فيما لا أعامه ولا أدريه ثم قلت رفهي  
عنه أو لم تسمعي كيف يناجيك ويستعطفك عن طريق غيرك  
جفني دموعه بيديك الناعمتين فإنه يود عطفك فتعطفت  
عليه في وداعة وطوقت عنقه بذراعيها العاجيتين ونظرت  
اليه في ابتهال ولكنه صدها عنه بلا شفقة ، وغمامة الحزن  
تعلو وجهه دون كلمة ، ثم اسرع الخطى وذهب الى حيث لا  
ندري . اخذتنا الحيرة في أمره فالشقيقة ما بين مشفقة ولائمة  
والعروس من فرط الحزن والألم تكاد لا تعرف كيف تتحدث  
عنه أو اليه أما أنا فأدركت بعض ما يخفى وراء صدره ولكني  
كنت حائرة في أمره وخشيت أن تلمح على العروس أو  
الشقيقة ظواهر الحيرة والاضطراب ، فتعمدت التجاهل  
والثبات ورجت أسأل العروس في رفق ، هل أسأت اليه ام  
تدلت عليه . فقالت لم يحدث ذلك ، ولن يحدث لأنني أحبه

فبلغ اعترافها من قلبي مكانا عميقا وحز في نفسي ووددت لو  
أفدى اعترافها بدمي فداء لتحقيق أملها وأهبتها أن تذهب  
إليه فعساه أن يهدأ ولكن سرعان ما عادت إلينا وقد فاض  
معين حزنها أكثر مما كان ، ثم ذهبت الشقيقة ورجعت  
وكان نصيبها من الهم نصيب عروسة أو يزيد وأخيراً ألحت  
على أن أذهب إليه فعساه أن يخجل ويحترم رغبتي فيصرخ  
بما في نفسه أو يعود الى مراحه واقترحت عليهما أن يصحباني  
ولكنهما أبتا مدعيتين أن احترامه لشخصي قد يؤثر فيه ،  
وقد يكون عنده ما لا يريد أن يصرح به لهما خوفاً عليهما  
من الحزن واحتراماً لرغبتهما ذهبت إليه ولم اكـد أقرب منه  
حتى هالني جلسته على هيئة جزيئة ، وقد ارتسم على وجهه  
صورة الاضطرام المكبوت ولما لمحتني حاول أن يوارى حزنه  
وتكلف الهدوء ونظر الى ياسمـا دون كلمة ففاجأته لقد جئت  
هنا الآن تحقيقاً لرغبة عروسك وأختك ورحمة بهما ، فإن  
الحزن لك كاد أن يهد قواهما ، ماذا دهاك على غير انتظار

وأنت خير مثال للعقل والرصانة فوقف واجماً ، وقبض على  
غصن قريب منه وداعبه متلهياً به غنى على ما أظن قلت :  
شكراً لك ، هكذا يكون الوفاء ، ألا هيا معي إليهما فلم  
يتحرك وظل صامتاً ، وبدت على شفثيه بسمة يمجج فيها  
شعور ثائر فاستطردت : تقدم فابتسم بسمة عريضة ارتفع  
صوته في نهايتها على نعم مرح وقال : هه أظننتي قد وقفت  
رغبة أن أعود معك إليهما ؟ قلت بلا ريب ! قال : لا بل  
أيقظني العبير لما دنا فانتشيت ! عرفت من عينيه ما يرمى  
إليه ولكني تجاهلت وقلت ، ولكن هذا المكان أشبه ما  
يكون بالغابة فلا زهر فيها ولا ورود ولا رياحين بل كل ما  
فيها طيور تهيم هنا وهناك ، قال ولذا فضلتها عن سواها ،  
قلت ولم اذن تحلم بالعطر ؟ قال لأني أرغب فيه ، قلت ولم  
تركته ؟ قال بصوت يحفه العجب أنا ! لقد عكست الآية  
أ يحدث الجفاء من رجل قوى قادر ، إن جفاء الرجولة قسوة  
لا مبرر لها ، أما جفاء الأنوثة ففيه دلال مستحب يشفع له

فولى وجهه عنى شطر طيور كانت تحوم حول شجرة  
بالقرب منا ، وقال بصوت مرتجف خفيض ، أما وإنك  
تحجبين الحقيقة بنقاب النموض ، فلتدعيني هنا اذن وحدى  
وأشار بيده فى بطاء الى مكانه وحملق بنظره حيث الطيور  
فاغتصبت بسمة وقلت : أظنك ترغب فى مشاطرة الطيور  
الحائرة ، فاتجه نحوي بكليته وردد : نعم نعم لأنى واحد منهم  
قلت فى عجب ! أطار حائر أنت ؟ فلوح بيده مؤكداً وقال  
بصوت غير رقيق طائر حائر هرأندا ، قلت فى هدوء اخترت  
لنفسك هذا اللقب فأنا به من الآن أناديك قال اكون سعيداً  
لو فعلت قلت اسمع اذن ياطائرنا الحائر هناك حمامتك الوديدة  
تنتظرك فتعال إليها لتطيب لك الحياة ، قال الطائر لا يفهم  
لغة البشر ، واحد من اثنين إما أن تخاطبيني بلغتى أو تدعيني  
أخاطبك بلغتك قلت ما دامت اللغة تؤدى الى الغاية المرجوة  
فلا مانع من استعمالها ، قال حسناً ! اذن تعالى تفاهم ،  
قلت ولكنى جاهلة لأنى لم أعرف لغة الطير فحدثنى بلغتى ،

قال هذا عيبك ، تدركين وتجاهلين كلانا حائر هكذا يبدو  
لى ، ولكن حيرتك مركزة على الرغبة وحيرتى مركزة على  
الاضطرار وشتان ما بين الحيرتين ، أنا أحرار فى تفهم العالم  
لأننى لا أفهمه وأنت تحارين بين ما تريد منه لنفسك وما يريده  
القضاء لك قلت هذا عيبى وعيبك أنت ، أنك تخلط بين  
الخيال والحقيقة فمثلا تخاطب عروسك عن طريقى وتخاطبنى  
عن طريق عروسك فتأفف وقال لقد أطلت فيما لا أرجوه  
إن القلب الذى أرجوه يتجنبنى أفهمت ؟ قلت يا ظلمك إنها  
لم تضن عليك بما ترجو فلا تنقس وهبها تدلت عليك ، أو  
ليس هذا هو حافز الرغبة فيك ؟ إن فلسفة الأنوثة تقضى  
على المرأة ألا تستسلم استلاماً مطلقاً بل تحرص على أن تأخذ  
اليوم أكثر مما تدع لتعطى فى الغداة أكثر مما أخذت ،  
فنظر إلى نظرة عميقة وبدا فى عينه التمتع شعور ثائر صامت  
ثم أشار لى بالجلوس فأبيت أن ألبى هذه الرغبة ولكيلا أدع  
له مجالاً فى الاسترسال قلت لو أنك كنت قد خرجت معنا

غير راض عن نفسك لاغتفرنا لك هذا الحزن ولا لتمسنا له  
تعليلًا مريحًا أما وأنت قد خرجت معنا خلى النفس إلا من  
سرورك فلا شك أن حزنك وليد الساعة ، قال هو ذاك ،  
قلت ولم ؟ قال ليس لي بذلك علم قلت عله الطرب ! الطرب  
أشجاك فأبكاك ! قال ليت ذلك ، قلت وماذا يعوزك أكثر  
من حب عروسك اللطيفة فتأوه وقال لا تحاولي قتلي ، قلت  
أو تشك في حبها ما أقساك ! قال لا يهمني ذلك ، قلت  
أتعتمد الخيال ؟ إياك ! ثم لزممت الجد ورجوت أن يسرع  
اليهما وأبديت أسفى لطول المقام ، ولكنه أبى وأصر على  
الانفراد بنفسه حتى أجيبه على سنوآله وأدركت من عينيه ما  
يجيش في صدره وخشيت أن يضطرنى الى هتك كرامته  
فانسجبت وكأني لم أسمع له قولاً ثم تركته وأسرعت اليهما  
فوجدتهما على حال من القلق الأليم ، وقد اضطرت أن  
أحجب عنهما الحقيقة لأحلبهما على الهدوء الفكري وصحبتهما  
اليه وأنا أقول فى طريقنا اليه إنه يخلو بنفسه لأنه يشاء



أن يكون شاعراً وظاهرة الشاعر شذوذه أحيانا وميله الى  
الانفراد بنفسه ليكيف ذهنه ومشاعره بجمال ما يبدو امامه  
ولما اجتمعنا به ظلمت أداعب هذه وأضحك تلك وأهيب  
به الى مكالمتهما حتي استطعت أن اعيد الى سمائهم ظل المرح  
الهارب ولكنه كان يفر من الضحك ويوارى نظراته خلف  
فكره الشارد ويعمد الى التجول بين الرياض النضرة وقبل  
ان يتخطى الوقت عتبة باب المساء رأينا ان نرجع حينما رأيناه  
بشعر بدوار في رأسه ولكنه ابى إلا ان يودعني وحاولت  
ان اصرفه عن غزمه فأبى في هدوء ولما وصلنا الى المنزل  
عرضت عليهم أن يستريحوا من عناء الطريق فأبى واصطحبهما  
وانصرف بعد ان حياني تحية محتشمة ظاهرها الجفاء .



خلوت بنفسى وتركت خيالى يحوب آفاق الآباد  
وأنا شبه ما يكون باغفشاء الحالم ، فرأيت فيما رأيت من  
اطياف ، طيف الخطيب الذى أسميته كما شاء الطائر الحائر  
رأيته كما شاء ان اراه ورأيت بونا شاسعا بين صورتين ، بين  
الصورة التى يريدنى ان انظر اليها والصورة التى اراها بعينى  
رأسى ، صورته وهو حائر كما يظن وصورته وهو غادر كما  
اظن وشتان ما بين الصورتين وتساءلت ، أيمكن الفرد ان  
يكيف مشاعره كما يهوى ، ام ترى الأحياء تسير خلف  
اهواء القوة اللامعة غير المدركة مجبولة ؟ واغترت شفتاهاته  
القوة الهائلة عن بسمة عريضة فهمت منها اننا جميعا عبيد  
المطامع تواتينا من قبل الغيب المجهول ، وبجانب طيف  
الخطيب تجلت لى صورة الخطيبة فرأيتها واقفة على باب  
الأمل البهيج تحلم بمستقبلها الهنيء ، وتتخيل ايامها المقبلة على

أحسن ما تتمناه ، يدنا القدر ينسج لها وشاحا غامضا قد  
يلقيه عليها وشاحا لم توحد ألوانه ولست أدري إن كان ناعم  
الملمس أو خشنه يصلح لتجملها أولا يصلح ولكن الخطيبة  
تعتقد أنه وشاح السعادة والهناء وحيال هذا الخيال انتابني  
شعور غامض وساورني هم لا أعرف سبيله ولا مأتاه ووددت  
لو أتيح لي من القوة ما يؤهلني للانتقام من القدر الذي يجمع  
في دقيقة بين قلبين على غير ارتقاب ويفرق في لحظة ما يجمع  
بعد طول غياب ووددت ، ولكن هيهات ! ولم تمر أيام  
قلائل حتى جاءني الصديقة حزينة كئيبة وراحت تقص على  
أبناء أخيها ، وكيف جنح إلى العزلة وحاولت أن تثبت إلى  
من وراء حديثها ما يمكنه لي صدر شقيقها حريصة على ألا  
تنوه عن علاقته بالخطيبة وقالت فيما قالت أنه يريد أن يتحرر  
من هاته الخطوبة ، لأن عواطفه لم توافق عواطف الخطيبة  
وقد ندم على أنه أقدم على الخطوبة دون أن يتأكد من توافق  
ميولهما ورغباتهما ، وأنه سار خلف خيال خاطيء .

كانت تتحدث بصوت حزين ، وكنت استمع اليها والبسمة  
لم تفارق شفتي بسمة السخرية والعجب حتى لمحت الصديقة  
بسمتي الفاترة التي لم تألفها منى ، فبادرتني لماذا تبسمين ،  
أهناك ما يدعوك لهاته البسمة الفاترة ؟ قلت اجل تصرف  
أخيك ، لقد جرى خلف خيال خاطيء كما تقولين ، ونسى  
انه قادم على دنيا جديدة واقعية لا خيال فيها ، لست افهم  
معنى لتصرفه هذا ، وعلام يندم ؟ اكان يظن أن من تجيد  
الموسيقى تجيد سياسة الحياة او انها من الجمال الخالق والنفسي  
والجسمي بمكان ؟ قد تكون ولكنها ليست قاعدة على  
كل حال ، قد تظهر الموسيقى النفوس البشرية ، لست  
انكر ، ولكنها ليست دليلا على كمالها او نقصها . الا يصح  
ان يلعب الموسيقى بالنار كلعبه بالأوتار ؟ ينخيل الى ان كل  
تصرفات أخيك غير مركزة على الفكر الصحيح ، وانه دائما  
يسرى وراء خيال خاطيء ، خطيئته لا عيب فيها ، ذهبية  
الشعر ، زرقاء العينين ، ذات بشرة بيضاء ، ولها قوام أهيف

غض رشيقة رقيقة وديعة طيبة ساذجة طاهرة وأنا اعتقد  
ان هاته الصفات كفيلة بأن تحببه - اذا ألفها - في الحياة وأنا  
واثقة أن أخاك سوف يندم في الغداة اذا تحلى عنها اليوم ،  
لأن الحقيقة لا تلمس بالعين المجردة عن الخيال إلا اذا فقدناها  
وهو اليوم أسير أخيلة غير مدركة ، سوف يتألم عندما تجر  
عليه ذيلها ويواجه الواقع ، كانت تستمع إلى واطياف الغموض  
والحيرة والألم تبدو ملتزمة في مآقيها ، وشاءت أن تدافع عن  
أخيها ، ولكن رهبة الواقع خانتها فهزت رأسها في غير  
اكترات ، كأن كلامي لم ينل من قلبها مناله ، وودعتني  
على أمل أن نلتقي قريباً .  
وظللت طوال الليل أطوف بذهني عند مخط الطائر  
الحائر ، راسمة لكل صورة معني ولكل معني قصة وصحوت  
مبكرة استلهم الفجر حقائق الوجود الذي يطوى في برديه  
نفوساً ما لها على نفسها من سلطان ، هاته النفوس التي  
تعتقد أنها على كل شيء قديرة وهي أضعف من الضعف ،

لأنها تعجز عن مكافحة أبسط النظم والعادات غير المشروعة  
وترضخ لأحكام ليس لها من الحق نصيب ، وتسير تحت  
تأثير شهواتها ومطامعها دون مكافحة وما هاته الرغبات  
والشهوات إلا رسول الفناء الذاتى الذى يصل بين الفرد  
والمجتمع ، وعلى غير عادة جاءنى رسول الصديقة يحمل إلى  
بطاقة ترجو فيها أن أزورها لأن مرضا قد طرأ عليها ،  
فأسلمها الى الفراش ولم يسعني ازاء رجائها الا أن أسرع الى  
عيادتها ، والاطمئنان على حالها ، فلما جئتها وجدتها حقاً  
أشبه ما تكون بالمریضة فبدأتها فى دعابة ، أو هكذا يحمل  
المرض الوجوه ؟ فابتسمت ابتسامة مرة ثم قالت بعد أن  
عانقتني عناقاً أحسست فيه بحرارة تجوب فى صدرها ، عل  
الجمال واتانى عندما رأيتك ، ثم قادتنى الى مخدعها وما كدت  
أقرب منه حتى رأيت الأخ فى شبه نوم عميق يتأوه بين  
الفينة والفينة بحرارة وبين يديه ورقة فهمت من ظهرها أنها  
صورة ولكن وجهها مرتكز على صدره فلم أتبينها ودنوت



منه فهالتي ظاهرة المرض البادية عليه ، فقد اتشح وجهه  
بنقاب من الشحوب ، وهزل جسمه هزالا باديا وكأنه  
مريض منذ اعوام ، ولم استطع كبج جماح عواطفي فأشحت  
بوجهي بعيداً ، حتي أوارى مدامعي التي غامت بها عيناي  
وفتح المريض عينيه ، رافعاً الصورة اليهما في شغف ، وقبلها  
في لهفة حارة وقبل أن اتكلم نظر الى وقد تهلل وجهه بابتسامة  
طليقة وقال : ها أنت ؟ قلت نعم : أنت مريض ، أو هكذا  
على عجل تمرض ؟ قال : ليته مرض وراءه أمل ، ولكنه  
عذاب وراءه فناء ، قلت وانا احاول ان اخلط بين الكلام  
والضحك الهاديء يالرجولة انت محط القوة تستسلم للاوهام  
قال : يالرجولة القوية ازاء الأنوثة الضعيفة ! قلت : ولكن  
الأنوثة لا تستسلم لأضعاف ما ينوء به حمل الرجل من امراض  
واهوال ومصائب وخطوب جسام ، ولعل المرأة كالنسمة  
فبقدر ما هي هينة لينة فيها سر الحياة قال : اجل ! وبقدر ما  
فيها من غير شذى فيها سم زعاف وعلى جناحيها يرتفع

العالم نحو العلا او يهبط الى الفناء ، قلت ولكنها لا تخرج  
سمها إلا اذا اضطرت للدفاع عن نفسها ، وبذلك تستطيع ان  
تسميه بالسم المرغوب ، قال ولكن ! ثم ضمت ، قلت وما  
يتبع ولكن ، قال تفهمين وتعلمين وتتجاهلين ! قلت افهم  
انك مريض واعلم انك ستعافى ، واجهل تشخيص مرضك  
فتورد وجهه الشاحب وهز رأسه فى صمت ثم قال بصوت  
خفيض : مغرية خطيرة ! قلت ولكنه خطر لا يؤذيك  
قال : إنه خطر اهون منه الموت العاجل ، قلت شوهتني  
أأكون وباء ؟ قال ليتك ! قلت اتظن اكثر ، قال بموليت  
ما وراء اكثر يصور حقيقتك ! ولو كان لكان لى معك  
شأن آخر ، قلت ولم أسمىنا كل ما لا يدرك غموضاً ، ولم  
تعلقنا بأذيال هذا الغموض ونحن نقضى عمرنا مؤملين راجين  
على ضوء هذا الغموض ، فأنا صحيفة من صحف هذا الغموض  
ولست وحدى اذ كل امرأة لها صحيفة ، وكذلك كل رجل  
وتستطيع ان تشبه الغموص بكتاب صنفه الخالق الجليل بلغة

غير مدركة لكل مخلوق صحيفة ، وعبثاً ما تحاوله المرأة من  
استقراء صحيفة الرجل ، او يحاوله الرجل من استقراء صحيفة  
المرأة ثم صمت وأنا شبه محتدة ، فقال وهل يحول الغموض  
عن ادراك الواقع ؟ قلت لا ! ولكن قد يتخذ الغموض  
وسيلة أحياناً للهروب من الواقع إذا كان لا يتحمل ، قال :  
الآن فهمت ، قلت : أتمنى ؛ قال أنت ! قلت : هو أنا  
قال غموض مطلق ، قلت يحلولي ، قال تعذيتني ، قلت  
بما شاء الله ، قال إذن ، قلت استودعك الله وتهيات للانصراف  
ولكنه استوقفني وقال : اذن أرجوك - فأومأت برأسي دون  
كلمة ليتابع قوله ، فأردف - أن تترفقي بي ، ألا تسمعين صراخ  
قلبي ، وضجيج روحي ، آه لو استطعت أن أنتشل قلبي من  
بين جنبي ، لو استطعت لحطمته تحطياً لأستريح وأريحك  
قلت ويحك ، قال أتخافين علي ؟ قلت الحياة تدعوك ويهمني  
ألا تفقد الحياة رجلاً عاملاً نابهاً مثلك ، فقبض على يدي في  
شبه عنف ، وناداني باسمي المجرد في غير رفق وقال لا تحاولي

التعنت مرضاة لغريزتك ، قلت وأنا أسحب يدي من بين يديه في هدوء ، ليس تمت ما يدعوك للتعنت ، ولكن مرضك على ما يبدو شبه وهم وأخشى أن يؤذيكَ ، قال أظنك أطلت قلت في مكوثي .. أعتذر ، وهممت بالانصراف ، فدمعت عيناه ، وارتعشت شفتاه ، وأشار بيده في بطاء ليوحى الى بالبقاء ، قلت ولكنك تعب والحديث قد يضرك ، فلم يجب وظلت دموعه تنهال في غير تمهل ، وكأنه خجل من نفسه فبرز رأسه في إباء وقال : إن ظاهرة المرض لا تبدو إلا في دموعي وأخشى أن يكون ذلك من ضعف أعصاب النظر فتغافلت وقلت ولم لا تكون دموعك من تأثير خواطر قلبك عل عروسك لم تأتِكَ اليوم .. علها في طريقها .

وقبل أن أتم حديثي ، استلقى في فراشه وغطى وجهه بالملاء وشعرت من حركات جسمه الخفيفة التي تهز الملاء أن عواطفه خائنه ولم يستطع صدها ، فترفقت به وخشيت أن ينالني ما يناله ، فرفعت عنه الغطاء وربت على خده في

رفق وقلت : ارحم نفسك ، فلم يفتح عينيه ولم يتحرك ،  
وعدت إلى ترفقي وظلمت أربت على خده وأدلك جبينه بماء  
الكلونيا اذ بدا لي أن الانغماء قد أصابه وأخيراً تحرك ورفع  
جفنيه في بطاء فقلت ارحم نفسك ، فأجابني بصوت خفيض  
رحمتك هي الرحمة الكبرى .

وقفت برهة ، وأنا أكاد احترق من فرط ما بي محاولة  
أن أكون قوية ، مقاومة جهدي هاته الثورة الكامنة في  
صدرى ، ولكن العاطفة لها حكمها الجائر ، فقد خانتني في  
النهاية ، ولم استطع كبجها فقلت بصوت مرتعش ؟ حي  
لو لم تشأ لنفسك من قبل مشيئة قبل هاته الرغبة لكان لي  
معك شأن آخر ، ولما ترددت في ترضيتك ولكن : ماذنبى  
والتمضاء قضى لك بغير ما تريد ، وقد يكون قضى لي بذلك  
أتظن انه من الهين على ان اراك على هذه الصورة الأليمة  
العليلة ؟ ولكن الواجب - ثم صمت برهة لأستعيد قواى  
واستطردت : أجل الواجب يقضى على ألا اجاوبك عاطفة

بعاطفة إذا كان ثمت عاطفة واثنتي ، على أني من القوة بمكان  
لذا استطعت أن أصارع ذلك التيار وقد صرعه ثم ابتسمت  
في دعاة ، وقلت : أنا قوية ، فكن قوياً مثلي على الأقل  
فضحك ساخرأ وردد هازئاً ، الواجب . الواجب ! أي  
واجب هذا يا فتاتي ؟ أي واجب يقضى بقتل قلب محب  
وروح والده ، بل يقضى بقتل رجل كان في مقدوره أن  
يكون من خير الناس للناس ، وابن الناس بالناس أنك تلبسين  
مسيوح الراهبة لتجيزي لنفسك حق النصيح ، من أباح لك  
ارتداء لباس الحكمة على حين كل خالجة فيك تحمل من  
الخطر ما تحمل ؟ هاهاها : الواجب ، الواجب ، فوق الحب  
حكمة تنزل من عند مليكة جديدة ، أو آلهة للشرائع العاطفة  
هه : ومن أنبت ، ومن تكونين ؟ أأنت إنسانة ، لك ما لها  
من قلب ، وروح ، وشعور . واحساس ؟ لا ، أنك لست  
إنسانة إنك حجر صلد ، ولكن من الحجارة لما تتفجر منه  
العواطف ، وإن منها لما يشقق فتخرج منه الرحمة ، وإن منها



لما يهبط من خشية الحب وسطوته ، إذن من أنت ؟ أنا  
أجهلك بقدر ما اعرفك ، من أنت أيتها الشيطان الذى  
يتراءى فى مسوح الملائكة الأبرار ؟ هه الواجب ، من  
عامك العزف على أوتار القلوب ، على حين صوتك يرتل  
أنغام القنوط ، من عامك اللعب بالنار ، فيتطاير الشرر  
ويحرق ألف قلب بار ، من عامك ومن عامك ؟ ثم تخاذلت  
قواه ، وتلثم لسانه فلم يستطع ان يتكلم ، وكنت واقفة  
فى مكانى لا أجروء على النطق ولا أقوى على الكلام ولكنى  
استطعت بعد جهاد أن أتكلم بصوت خفيض كأنه أنات  
من وراء الأبعاد السحيقة ، فقلت : عامنى ربى فأحسن  
تعليمى ، ولم أخضع لتعليم البشر ، وان ظنوني عبدة تعالىمهم  
عامنى ربى عن طريق إحساسى ومشاعرى ووجدانى قيمة  
الحياة ، وما وراء هاته الحياة على حين قد شئتم ان ترضخوا  
لتعاليم الحياة ، فحالت تعالىمها بينكم وبين تعرف ما وراءها .  
عامنى ربى التمرد ، وعلمتكم الحياة الرضوخ ! ولكنى أتمرد

على الباطل حتى ولو أحلته نفسي وقد أظلم نفسي أحياناً وأعذبها  
في سبيل الحق تحقيقاً لمثل الأعلى ، أما أنتم فقد تعلمتم  
الخنوع والاستسلام عابثين بالحقائق في سبيل الأحلام . هذا  
موقفك مني ، وموقفك منك ، إنك تريد أن تحطم قلباً لتحكي  
قلبك وتقتل نفساً لتسعد نفسك : أنت الرجل وأنا أحاول  
قتل قلبي في سبيل أحياء قلب آخر وأشقي نفسي لأسعد غيري  
شاعرة أن في ذلك لذة كبرى وراحة نفسية عظيمة رغم ما  
أعانيه من الألم والحرمان . هانت تخضع للعاطفة وتستسلم  
لأمرها في ذلة وانكسار ، وهأنذا أصارعها فأصرعها وأغلبها  
فأغلبها . كل ذلك في سبيل الواجب ان المعروف عن المرأة  
أنها عبدة لعواطفها وهذا وهم باطل إذا لمسنا قلب المرأة . إن  
المرأة لا تسير خلف عواطفها إلا إذا سلبتها الحياة منذ الصغر  
سلاح الكبرياء الذي تستطيع ان تصارع به أهواء الحياة إذا  
صارعها ، فأنا وانت وعروسك تمثل الإنسانية بأسرها . هذا  
يتعذب في سبيل ذاك ، إذا كان كبير النفس نبيل القلب

كريم الروح ، وذاك يضحى نفسه فى سبيل هذا لأنه يرقب  
العالم من وراء الأفلاك على ضوء قلبه فيحس أن عظمة قلبه  
وقدرة نفسه فوق قدرة هاته العوالم ، وثالث يقيم لنفسه ذكرى  
على حساب أناس آخرين ، ولا حيلة له غير هذا التصرف الشائن  
لأن الحياة سلبته قوة نفسه ، وكلنا خادع مخدوع ، وهنا بلغ  
منى الألم غايته ، فهدأت قليلاً ثم استطردت : لك دينك ولى  
دين ، أنت مستسلم وأنا متمردة ، والاستسلام والتمرد لا  
يتفقان انت تألف الحياة فى دنيا أخيلتك وحدها قانعاً بقوت  
ذهنك وأنا لا يرضينى غير التجوال فى العالم هنا وهناك ، أسير  
على الربا المعطار وعلى الأرض القفار ، وفى الصحراء الوحشة  
غير عابئة بما ألاقىه فى طريق من مخاوف وأهوال ، ما دام  
ضوء الله العالى ، ومثل الحق الأعلى رائدى أسبح فى الفضاء  
بروحى ، واجوب العالم بذهنى ، وشتان ما بين الحياتين ،  
وهنا قاطعنى - وكأن كبرياء الرجولة سلطت أشعتها على  
هيكلكه ، فبدأ أمامى رهيباً - والآن ؟ قلت والآن يسرنى

أنك عدت الى نفسك ، راجية ألا تعود الى هتك عواطف  
أية فتاة وقتل مواهبها مرضاة لك ، وترويق الباطل تحقيقاً  
لعاطفة هوجاء تثور في اليوم لتخمد في الغد ، ولا تحرم الحق  
لتنال ما تشتهي : فاعتدل في جلسته ، وبصوت فيه نغم الحزم  
الرزين قال : في مقدوري أن اكون كما تريدن أن اكون .  
واعتدلت كذلك في جلستي وبصوت غير لين قلت : أريدك  
ان تكون زوجاً كريماً مخلصاً نبيلاً مفكراً حليماً ، تقيس  
الحياة بمقياس عقلك وقلبك معاً ، فابتسم في طلاقة وقال :  
هذا واكثر منه ، قلت دون أن ابتسم ، وأن تحرص على  
حبها وتعمل على إسعادها وتتقف حياتك من أجلها ، وانها  
خلقة بكل خير ، قال : ومن ينكر ؟ ولكن أشعريني  
السعادة فوجهي الخطاب الى نفسك فلست غائبة . قلت  
أما زلت تحلم ؟ لقد ظننت انك سموت معي الى دنيا الواقع  
انا أعني عروسك ، اما انا فغض الطرف عني . فتجههم وجهه  
ثم نظر الى نظرة عميقة وقال ولكني لا أحب إلاك فازداد

ألمى ولكنى وارىته وقلت فى هددوء فكر ! أنك الآن مريض  
أو شبه ذلك ولا أحب أن أستغل ضعفك إحياء لحبى ، فأني  
أقدر العواطف قبل وقوعها وأفكر فى الحياة بفكر أوسع  
مما تظن . خطيبتك خيالها لا يبرح ضميرى ، ولست من  
الأثرة والظلم والضعفة بمكان حتى أقتلها فى سبيل عاطفة ترضيني  
أو تظن أن السعادة تطيب لى على حين أن هناك قلباً يئن  
ويتوجع من ورأى ؟ لا لا : لكنت كبرى الآثمت ،  
فقاطعني : يا الله ! إنك تخطين دائماً بين الواقع والخيال ،  
وتشوهين الحقيقة مرضاة لجحودك يا ذات القلب الحرب  
قات فى هوادة : أوهكذا تظن ؟ إن قلبي أعرف بالحب منك  
ولكنه حب غير ما ألفه الناس جميعاً ، إنه لا ينتمى الى رغبة  
أو متعة أو أمل محدود ، إنه حب وكفى ، وبحسبي أن أدركت  
الله عن طريقه وأحببت أهلى وأقاربنى بوساطته ، وتعامت  
الفنون ، وألفت الجمال على ضوئه ، فأنا أحب ، بكل ما  
فى من قوة خباً شاملاً سامياً غير محدود ، حباً يسمو على

النظم ولكنه لا يعصف بها ، والحب عندي ظاهرة من  
ظواهر الحق والفضيلة والجمال والصدق ، فأنا لا اعرف  
روعة الشيء الا اذا شف عن دخيلته ، وانا اذا أميل بفطرتي  
الى ناحية من نواحي نفسي فأنما أعني الحق ولا يستهويني  
الجمال او الحسن الا اذا اتصل بالطبيعة في اي كائن ، فكل  
من تلاعبت الصناعة بذاته فقد خلع جلباب الجمال عنه فأنت  
ترى ان قوة الحب فوق قوتي ، ولست من الكذب بمكان  
حتى ادعى اني اقوى من قوة الحب ، فأنا محبة ، أما أني  
محبوبة فلا اعلم ، ولكني قانعة بأن احب وحدي هذا الحب  
الذي لا يحد ولا يوصف . فليحبني العالم كله ، او فليبغضني  
وماذا يضرني ما دمت انا احب العالم كله ، واود لو اهبه بقدر  
حبي فضلا عميما . وانت رجل قدر عليك ان تلعب دورك على  
مسرح الحب بلباقة فائقة ولن يتم لك ذلك الا اذا احببت حبا  
مرهفا قويا ، حساسا ، ذكيا ، ساميا ، اينا ، كريما ، عليا ،  
مضحيا ، نجيا ، حبا يضحى بكل شيء في سبيل مثلك العليا



التي اتخذتها طريقك الى السماء فتفاخر الانسانية بفضلك  
وتتباهى على الأجيال الخوالى . وهنا احسست ان قواي  
تخاذلت ومشاعري تنبهرت ، فلم اعد قادرة على صد تيارها  
الجارف وخشيت ان يناله منى ما لا ارجوه ، فقد لمحت  
عليه ظاهرة الألم والاضطرام ، فترققت به واستطردت :  
والآن احلت لك الحياة ما رجوته في ماضيك ، فكيف تحرم  
اليوم علي نفسك ما رغبته فيه بالأمس . اردت ان تتزوج  
واخترت من بين النساء جميعاً فتاتك ؛ ولا شك انك  
حكمت عقلك وقلبك معاً ؛ فلماذا تفر منها اليوم راغباً في  
فتاة اخرى ؟ او تحسب اني امتاز عن فتاتك بشيء ، لا  
تظن ! ان عروسك وإن كانت على قليل من العلم والثقافة  
إلا انها تحبك حبا يحوطك بالرعاية والوفاء ، إنها تحبك  
حبا قويا على الاقل ، وانا اعتقد ان المرأة المحبة تخلق من  
هواها فردوساً خالداً ينعم فيه الرجل بما يرجو ، فوطن  
النفس علي ذلك ، وركز فكرك على هذا المحط ، ولا

تجنح بخيالك الى فضاء الوهم الفسيح ، وليس الزواج حاملاً  
من الأحلام ، إنه حقيقة خطيرة ، إنه حياة قائمة بنفسها لها  
ميولها وتوافقها ، وأنظمتها وقوانينها ، فلا تظن أن حب  
الرجل وحده يكفي هاته الحياة ، في مقدور المرأة ان  
تكيف مزاجك وتلطف مشاعرك ، وتنظم شئونك ،  
وتجمل حياتك ، بل في مقدورها أن تخلق خلقاً جديداً  
ما دامت تحبك الحب الكامل البريء الخالص ، ولكن  
ليس في مقدورك أن ترتفع بها الى سمائك إذا كانت تمقتك  
انقت البنيض . تنفس الصعداء ، متطلعاً الى السماء ،  
ثم ارتد طرفه اليه في هدوء فرنا إلى ثم قال : ولكنك أبداً  
أمامي ، وأنا اجزم أنك تدركين حبي وتبادليني إياه ، ولكن  
بينك وبين نفسك مهما وارىت ، فعيناك يختلج فيهما ضوء  
حبك وكان صادقاً بلا ريب ، لذا حاولت أن أتابع المرئيات  
ببصرى ، حتى لا يتركز نظرى عليه ، ثم ابتسمت في دعة  
وقلت في تلطف : لا تحاول أن تشرح قاي ، اذ من العبث

أن تعرف ما وراءه ، ولكن حاول إن شئت أن تعرف رغبتى  
أنا فتاة نهمة أتطلع الى ما وراء السماء ، وأنت تعيش بمالك  
وجاهك ومركزك قانعاً لا ترنو عينك الى ما وراء ذلك ،  
وكل هاته الظواهر فى نظرى لا قيمة لها ، وقد رضيت بها  
الانسانية راغمة ، لأنها سلم الرقى العمرانى المزعوم الذى  
يتطلع اليه ابناء المادة عبيد الرغبات والمطامع المحدودة ، وقد  
اكون أنا شاذة لأنى أبداً اتطلع الى ما وراء نفسى ، وأترب  
أشباع نهى عن طريق أمل جليل لا يحققه غير طيف الرجل  
العبرى الذى أودع فى روضته خلاصة المثل العليا ، أنا أريد  
الحياة على غير ما يريد الناس جميعاً ، لأنى أريدها مضاءة  
بالحب الجليل ، والتسامح النبيل ، والبر العظيم ، والفضل  
العميم ، والجهاد الفائق ، والتمرد الصادق ، وقد يحلولى  
العذاب فى سبيل ذلك ، فقاطعنى قائلًا : يا أخت الخيال  
رويدك ، إنك تتكلمين بلسانك وحديث اللسان غير حديث  
القلب ، فعز على ان يشوه حقيقتي ، فقلت فى غير لين :

لو كان للسانى الحق فى حرية الحديث لاستطعت أن  
استرضيك على الأقل منذ بدأت تضطرب فى سبيل عاطفتك  
ان أبغض الأحاديث عندى حديث اللسان وهو كطلاء  
الوجه ، تجهد المرأة نفسها فى اتقانه ، وقليل من الوقت  
كاف لتشوييه ، وهذه الظاهرة لا تعينى بقدر ما يعينى  
مواجهة الواقع ولو كان أليماً ، فأنا أحب السير فى الطريق  
وحدى ولو كان لا حباً موحشاً مظلماً وقد يخلو لى السير فيه  
طويلاً لأعرف حقائق الوجود ، لأن الحقائق تحتجب وراء  
المجهول لتحمل البشر على الدرس والبحث والتنقيب والجهاد  
فلا كن واحدة من هؤلاء الباحثات الدارسات المجاهرات  
ومحال على ما أعتقد ان أتأذى بروعة الضوء إذا لمحتة عن  
طريق غيرى ، بل إنه يسرنى ان أدرك الحقيقة وحدى عن  
طريق أفكارى وأحلامي ومواهبى ، وهنا كنت قد نسيت  
بأفكارى ، فأدركت موقفى منه حيال نظراته العميقة  
الوضاءة فنظرت اليه برهة صامته مستعيدة فكرى ، ثم

استطردت : أما وقد شاء الله لك عروساً من خيرة الفتيات  
جمالاً وطيبة قلب ، وطهراً ووداعة فعش لها . وكان يصنئ  
إلي بانتباه دون ان يقاطع ترسلي وما كدت اشير الى عروسه  
حتى صرخ في وجهي كفى ، كفى ، أرجوك ، قد تركتها  
تركها ولا بد ، قلت وقد اعتراني شبه ألم ممض ، وثورة  
كادت تصرعني لو لا أنني ملكت نفسي ، كيف تجرؤ ؟  
إن كانت أساءت اليك ، فأنا شفيعها لديك ، تريث ياسيدي  
وفكر طويلاً فعسى ان يعود اليك صوابك وعافيتك ، قال  
حسبك يا آنستي ولا تضيفي الى همومي همماً جديداً ، دعيني  
وحدى أتصرف كما يحلو لي ، وتخلي عن طريق اذا شئت  
وكوني راضية او غاضبة ولا تجعليني هدفا لقنابلك ، قنابلك  
أيتها القتالة التي يحلو لها ان تبسم على حين عيناها ترسل إلى  
شرراً تكفي الواحدة منها لأحراق ، كان يتكلم وقد ملكته  
كبرياء الرجولة ، وعزة نفسه ، وبدأ كأنه صحيح الجسم  
معافى فابتسمت في هدوء وإن كانت عيناها تكاد ان تتفجران

بالدموع وقلت : يا له من حلم رائع إلى متى يواتيك وهمك  
عد الى عقلك إن كان شبه مس قد أصابه ولا تخط بين  
الحقيقة والخيال ، فالنزوع الي الحق ولو كان مرا فضيلة ،  
فقاطعني صارخا : أنت التي تنزعين الي الخيال ، الخيال  
الطائش على ما أظن ، فجابهى الواقع على ضوء قلبك ، ولا  
تفكرى بعقلك فقط لأن العقل وحده لا قدرة له على الحكم  
العادل . لم أستطع رد ثوري النفسية وخشيت أن يامح  
ظاهرتة بادية على فأسرعت وتركته وأنا أردد ، يبدو لي أن  
لا فائدة من الحوار ، إن المرض جر عليك ذيل الوهم ، ولا  
فائدة وراءه ، أتمنى لك الشفاء ، وتركته دون ان التفت الى  
رجائه ، وقبل ان أنصرف قادتني شقيقته الى البهو وأنا أسوق  
قدمي في شبه عنف لفرط ما بي من اضطرام وجزع وألم  
ولم أستطع كبج جماح عواطفي فبكيت . اجل بكيت . ولست  
ادري لم بكيت ، ولكن شقيقته جففت عيني بمنديلها في  
رفق وقبلتني في حنان ثم قالت بصوت خفيض : يا عزيزتي



إنه يحبك ، إنه يحترق بدموع قلبه وقد صبح عزمه على ترك  
خطيئته ، ولا بد من ذلك فلا راد لأرادته ، ترفق به يا صديقتي  
أو على الأقل اعطفي على شبابه الغض وذهنه الخصب فالمرض  
يتلاعب بهما الكلمة منك تشرح صدره وتطمئن قلبه . اجيبي  
بصراحة : لماذا تصدينه عنك ، الزواج مقدر عليك مهما  
قاومت رغبات الأهل والصحاب ، وماذا يعوزك ، مركز  
و ثراء وحب ، إنه كفاء لك يا عزيزتي . قلت لها وقد عاد  
الى هدوئي بل هو فوق مستواي إن شئت تصرحاً ولكني  
لا أستطيع ان أساهم معه في قتل نفس بريئة محبة وفية ، وهل  
هذا يرضيك ؟ لا تحاولي قتل البريئة معه . ما ذنبها ؟ ان  
قانون العدالة يقضى بقتل القاتل لجسم ، فأى عدالة تنص على  
عقاب النفس الطيبة الطاهرة وقتلها ، وأي عقاب أرهب  
من الموت يستحقه ذاك الجاني ؟ لا ان القتل أهون في يقيني  
فقاطعتني : ليس ثمة قتل كما تتوهمين فسوف تتزوج بآخر  
قلت : من ادراك ؟ انها تحبه ، وصدمة كهذه كافية لقتلها

فانى اعرف خبيثة قلبها من عينيها الصافيتين ، هذا ظلم ، لا  
لا يا صديقتي كوني رحيمة ! قالت وقد طوقتني بذراعيها على  
اثر الدموع التي انهالت من عيني ، تصوري كيف أحرص  
على حبك وكرماتك ، وأصون ولاءك ، تصوري كيف أغار  
عليك من لداتك ، أنا الفتاة التي تقربني منك عاطفة الحب  
النسائي ، لا أحتمل منك اى تجنب او جفاء ، فما بالك برجل  
يحبك حبا ، ساميا ؛ قويا ، زخارا ، وشتان ما بين حب الرجل  
للمرأة وحب المرأة للرجل وهنا تذكرت الصورة فسألتها  
صورة من تلك التي كانت بين يديه ، فتلعثمت وقالت في  
خفوت ، وقد ملكتها رجفة هادئة : صورتك . فهالني  
الأمر . صورتى ! وكيف أخذها ؟ ومن اين ؟ فنظرت الى  
في استعطاف وقالت : سامتها اليه وانا باكية خوفا منك ،  
وخشية عليه ؛ فاصفح عني ، قلت في حدة لا ! أتسيئين الى  
كرامتى ابتغاء مرضاة أخيك ؟ واستويت واقفة في غضب  
فأجلستني يديها في هدوء ولطف وقالت بصوت لين : عفوك

انه يحرص عليها اكثر من حرصك على نفسك ؛ انه يصونها  
اكثر مما تتصورين ؛ وما ضرّك لو تداوى بخيالك على ورقة  
أيتها البخيلة ؟ ان عاطفته نبيلة ؛ وغرضه أنبل ، انه يحبك  
ويريد أن يتزوج منك ، فمن يعيب عليه ذلك . قلت في  
صرامة : لن يحدث ذلك ، وكيف يهجر خطيئته بلا ذنب لها  
هل جزاء اخلاصها ووفائها ، وحرصها علي كرامته الحكم  
عليها بالأعدام ، أوه ! يالأنانية كيف تطلبين منى شقاء غيري  
لأسعاد نفسي ، وأنت بخلق ومبادئ عليمّة ، كيف أقتل  
قلوبها لاشبع عاطفة قلبي ، يا للهول انها لجريرة كبرى ؛ وان  
عدها الناس دون ذلك . فحنت على وقالت : انه يهواك ،  
وقلبه لم يخفق لسواك ؛ وقد ادرك ان حبه لها كان خاطئاً  
فقلت بنعمة التهمك والسخرية : وسوف يحب غيري في الغد  
وسوف يعرف أن حبه كما ترعمين خاطيء ان قلبه يا صديقتي  
وأعني قلب الرجل ان شئت إيضاحاً كالفراشة تحوم هنا  
وهناك ، وترف فوق الازهار مستمدة منها العبير لتحيا ،

أرأيت فراشة هائلة حول الضوء؟ أو لم ترى كيف راق لها  
الضوء ، وكيف ملك عليها حسبها وكيف تهيم وراءه لما فيه  
من لذة لها ، ولا فرق عندها بين الضوء اللهيبي ، وبين  
اللون الزهري فكلاهما أمامها سواء ؟ ولكن حسبها أن  
وراء الضوء ما وراء الزهر من متعة تحمله على ان يظل يرف  
حتى يسقط في النهاية حريقاً بعد أن تهد كيانه الرغبة المكبوتة  
الفراشة لا تموت بعد ان ترف على الزهر لأنها لم تنل من  
الزهر حظها المرغوب ، ولكنها تموت على أثر الطواف  
حول الضوء ، وسر ذلك الحرمان . أجل الحرمان هو  
باعث هيامه ، وسر غرامه . والحرمان كما أظن هو طابع  
الحب ، وعلى قدر نصيب الإنسان منه يكون حظه من  
الحب ، فالحب يبقى ما دامت الرغبة باقية ، والرغبة تبقى ما  
دام الحرمان موجوداً ، المتعة تغذى ، ولكنها تقضى على  
الرغبة وهاك دليلاً بسيطاً ، فالجسم عندما يتغذى لا يشعر  
بجوع ، وإذا جاع شعر بحاجة الى الغذاء ، فحرمانه الغذاء

يدفعه الى طلبه وما يسرى على الجسم يسرى على النفس تماماً  
فلو ظلت عروسه تحرمه ما يرجو لبقى حريصاً عليها طوال  
السنين ، ولكنها بريئة النفس ساذجة إذ اندفعت وراء حبها  
وعز عليها أن يرجوها فلا تجيب ؛ لقد أساءت الى نفسها  
بقدر ما أحسنت اليه ! هلا تصدقين ؟ لقد ملأت روحه  
بضوء الحب ، وعامته كيف يحب ، وما هو إلا أن تعلم  
كيف يجوب الآفاق ويخلق بجناحي الحب فى السماء ، حتى  
حلا له أن يطير فى كل واد راجياً حياة جديدة ، وإن الرجل  
يحب ويهوى - لست انكر - ولكنه يحب نفسه يحب  
رغبته ، ويفنى فى سبيل العشور عليها ، فاذا أنالته الحياة متعة  
الحب كما يروم ازداد طمعاً وجشعاً ، لأن النفس البشرية من  
رأيها الطمع كالمعدة تماماً تشعر بالمرض ، وتكل عن الهضم  
وتطلب وتطمع ، وهكذا يظل يحوم وراء كل ما يروقه  
لينيل حظه مما يشتهي ، وتتحدد رغباته وأمانيه وتتسع احلامه  
وأخيلته على طول الطريق ، وما أشبه الرجل المحب بالسكير

يبحث عن خمرة أيا كان نوعها في كل مكان راجياً ان يوفق  
الى النادر النفيس ولكن من توفيق الأنسانية وسعادتها ،  
ان هناك مثلاً علياً تحمل بعض الأفراد الممتازين على السمو  
وتدمير الأباطيل والعصف بالتقاليد الوضيعة سعياً وراء هاته  
المثل العالية ، فقاطعتني ، ولكنك ظلمت أخى ، لأنه لم  
يختلط بها كما تزعمين كثيراً ومنذ عرف أنها لا تجيد الموسيقى  
كما كان يظن ، نفر منها واجتواها . فازدادت ثورتي وقلت  
هاته أغلوطة أخرى ، إذ من العبث أن يخلط الرجل بين  
الخيال والحقيقة فيعمل على تركيز حياته المنزلية على أحلام  
ذهنه . أتكون الموسيقى وحدها كافية لتشيد منزل عامر ؟  
إن الموسيقى ظاهرة كالجمال والمال وما شابههما ، فلا يمكن  
بأى حال أن تقيم منزلاً عامراً وحدها بل لا بد أن تركز  
هاته الظواهر على توافق الميول والتزعات وحسن السياسة  
المنزلية ، والتدير والاقتصاد ، والعمل لصالح الوطن عن  
طريق الأسرة المنوطة المرأة برعايتها ، إلا كان يجدر به ان



يتأكد من طباعها وميولها ونزعاتها ، قبل ان يقيد نفسه  
برباط مقدس خالد ويحكم على نفسه بالشقاء المحتوم ؟ قالت :  
إن أخى لم ينعم بجوارها كما تتوهمين وقد عذبه الحرمان ولعل  
الحرمان جرعة من السم تميت من يتجرعها ، ولكنه الموت  
البطىء . قلت : أحيانا ! ورغم ما ينفثه في الصدر من  
هموم ، وخواطر ألمية ، فهو يخلق في النفس قوة ممتازة  
تحمل صاحبها الى سماء الفن ، وقد يظل سامياً ممتازاً ، وقد  
لا يكون ، والحرمان على أية حال يفيد كثيراً ، ولعلك  
تعرفين أن سر خلود الحب وبقائه على مر السنين وهاجالامعا  
يتعلق بقوة الحرمان وضعفه ، أترأه أدرك ميولى ونزعاتى  
مع أنه لم يختلط بي اختلاطاً يبيح له ذلك ؟ كلا . إذن فهو  
يسير خلف خيال خاطئ . وشاءت أن تدافع عن أخيها  
فقلت : أجل انه يفهمك تماماً ، لأنه ذكى بصير ، ولولا  
ذلك ما أحبك هذا الحب العميق ثم هزت رأسها وأردفت  
لأول مرة المس القسوة عن طريق قلبك ، فيالك من قاسية

اجل أنت قاسية جدا جدا يا عزيزتي ، مع أنك - وأأسفاه  
فنانة ! قلت وهذا عيب ، نعم عيبى أنى فنانة ، ثم أكدت  
صدقنى إنه عيب لا شفيح له ، ودليل ذلك أننى أتخبط فى  
الدجى وحدى على ضوء هذا الفن ، بينا الناس يتمتعون  
بأمانهم على حساب غيرهم ، ويرتفعون بأنفسهم على أعناق  
غيرهم ايضاً ، اما أنا فقد وهبت الفن امانى الحسان ورغبت  
اليه أن يمنحنى نفحة من النعيم الروحى . ففتح لي رتاج ذاك  
النعيم ؛ ولكنه بعيد ؛ بعيد جداً حتى إنه ليحشمنى الوصول  
إليه كثيرا من العناء ولسوف أسير دائماً حتى ابلغ غايتى أو أقضى  
دونها ؛ فليس تحفظى جهوداً كما يبدو لك ولكنه فن من  
الفنون ؛ ولعلك تعجبين إذ أصور لك العيب الذى لا يروقك  
فناً محبباً ؛ عيب فى ظاهره القسوة وباطنه الرحمة والسلام  
انه كمبضع الطيب يحملنا على العويل والصراخ ولكنه عويل  
الرحمة وصراخ الشفاء ، فأنا محبة ، ولكنى أحب حبا علويا  
شفافا نقيا ، جليلاً أياً ، وأطمع فى الحب الذى يزيد من

شعلة هاته النزعات فيريدها توهجا وضراما . ارتاحت  
صديقتي لصراحتي ، فابتسمت في بساطة وقالت في سذاجة  
حسن من تحبين ، قلت أحب الروح العلوية التي تعصف  
بالغدر والخديعة وتتمرد على الحق والأباطيل وأحب أن  
تكون صلتى بمن يحبني صلة فنية ؛ كالصلة التي تربط الفنان  
بإيحائه ، فاستلقت على ظهرها من الضحك وقالت : حتى  
حبك قاس كقسوتك ، قلت دون أن أساير ضحكها : وأنا  
أتشبت بأذيال هذا الحب القاسى ما دام يرتفع بي عن  
الأوضاع غير المشروعة لأأخذ منه قوة أصارع بها الأهواء  
والرغبات الباطلة وأزود عن نفسى كلما واجهني أحد المتطفلين  
أجل يا صديقتي أنا أعبد ذاك الحب الذي يعلم البشر العزف  
على أوتار الأمن والسلام ويحطم أغلال الحرب والخصام ،  
فتكون الإنسانية بفضلها محطا للهدوء والأمان ، وكأن في  
ذلك استهتارا بعاطفة شقيقها فثارت على وصرخت في وجهي  
لو أنك غيبة لعذرتك ولكنك ذكية ، ما هذه الفلسفة الجافة

ثقي ان أخى لم يحب سواك ، قلت محال ذلك وهى انه يحبني  
الآن ذلك الحب الزخار ، فسوف يلمس فى الغداة حقيقة  
أخرى ، ويشاهد صوراً أروع ، تدفعه الى حب جديد ،  
وهذا بطبيعة التناسخ الذى تكشفت عنه السيكولوجية الحديثة  
لأن الجمال تنسخ صورهِ بعضها بعضاً ، ولا يبقى فى بؤرة  
الشعور الا الصورة الواضحة القوية التى تغلب على الصور  
الأخرى التى فى حاشية الشعور ، وليس معنى ذلك دوام  
هذه الصورة فى بؤرة الشعور . كلا . ولكنها قد تضعف  
ويحل محلها صورة أخرى تغلبت عليها من صور الحاشية ،  
فتخرج الأولى الى الحاشية وهكذا - فالقول بأن هذا يجب  
تلك حبا ملك عليه قلبه ، ولم يترك مكاناً لغيرها ، ان ساغ  
أدبا ، لم يعد يسوغ سيكولوجياً . فصورتي التى تبدو أمام  
شقيقك فى هاته الأيام وضاعة فاتنة ساحرة سوف تتلاشى  
فى الغداة اذا ارتطمت أحاسيسه بصخرة سحر اقوى وفتنة  
أشد أو على الأقل اذا تكشفت له منى ناحية لا يحبها .

والآن دعيني احاول بلباقة صد تيار عاطفة اخيك لناخذ بيده  
الى محط الراحة والهدوء والسعادة التي يتغافلها ونسعد بجانبه  
فتاة جديرة بالسعادة والهناء ، دعيني امد يدي الصغيرة في  
خفاء ورفق الى صدره باسم يدك لا أنزع صورتني من بين  
قلبه ، ولا أضغ مكانها صورة عروسه حتى يراها بالعين التي  
لا يزال أبداً يراني بها ، ولا شك ان الله سيكونها برضاه  
والآن اليك مهمة بسيطة فحاولي القيام بها من اجلي فمسي  
ثورة الحب أن تحمد عنده . تعلمي الكذب من اجلي وإنه  
الكذب برىء ، قولي له إني مخطوبة وإني أهوى خطيبي  
وليس في مقدوري ان احب سواه حاولي الافتراء يا صديقتي  
فقاطعتني ، أو تقتلينه راضية وانت التي وقفت ضوء قلبك  
وبر روحك ، وعطف نفسك علي البؤساء ؟ او ليس جديراً  
بذلك من سببت له البؤس والشقاء ؟ قلت : اما عن الشرط  
الأول فلا أنكر ، واما عن الزعم الثاني فأستنكر وهي  
ذلك ، فالشقاء ليس معضلة ، إن من الهين ان يتلاشى

ويتناثر كالأشلاء ، ثم يحل محله السعادة والصفاء ، ومن  
أجل ذلك دعيت أتعمد الجفاء ، لأن الحقائق مشوهة ، ولا  
مندوحة من الهروب الى الخيال ، دعيه يتخيلني غير ما يرجو  
لينسى ، قولي له إنني فتاة جاحدة ، شوهي حقائق وحطمي  
مطامعي ، وأفسدي فضائي ، حاولي ان تقذفي بروحي في  
بحر صاخب من الأوهام السقيمة ، وتعالى اليه بعروسه في  
فضاء أبهج وأجل ، أفعلي ذلك من أجلى وحرصاً على مستقبل  
الفتاة البريئة ليرعاك الله في مستقبل أيامك ، إنى أريد سعادة  
أخيك وسعادة الفتاة ، يا صديقتي كوني مكانها وتخيلي مصابها  
لنفسك ، ثم حكى قلبك وعقلك . فتأفقت ودمعت عيناها  
وتعطفت على وقالت : ولكنك ستعانين ألم نفسك ، وألم  
غيرك فاني أعرف قلبك . قلت وأنا أحاول ان أخفي هاته  
الحقيقة ، سأظل حياتي انشد شعراً ، وأوقع لحناً ، وأرسم  
صوراً كلها تنتمي لحقائق الوجود في كنف ضوء الفنون  
وسأظل أقرع باب الحقائق بعصا الأحلام حتى تواتيني



المعرفة ، فأعـض عليها بنوا جـذى لأدرك المـجهول على ضوئها  
وهناك عند محط الواقع ، أوقع ألحان الوجود لأسمع الكون  
أغاريد الخلود . وسمعت تصفيق المريض ، فأسرعت اخته  
إليه وخشيت أن يجهد نفسه وينادر فراشه إذا علم بوجودي  
وقبل أن تعود كنت في طريقي إلى منزلي ؛ بعد أن تركت  
إليها مع الخادم تحية المساء .

## ٣

سـرت في طريقي إلى منزلي ، ونظري يمتد خلف  
الطيور في السماء حيث تطير ، وهي تنتقل من فنن إلى فنن  
يا لله ! أهكذا تطير قلوب الرجال حول العذارى ؟ ولكن  
ما ذنب الرجل ، أيسأل عن هذا التصرف ؟ وهل هو  
تصرف خاطيء كما يعتقد العامة ؟ لا أظن إن الجمال في كل  
مكان ، والله لم يوحد الجمال كما يوحد الإنسان حبه ، بل الله  
نفسه لم نجبه هذا الحب الجليل العظيم ، إلا من تنوع مآثره

الجميلة الرائعة الخالدة ، وأظن لو كانت هناك سماء فقط دون  
أرض أو نبت أو ماء ما بلغ حبنا لله ما بلغ بنا اليوم ، ولو  
كانت الأرض بلا سماء ما استطعنا ان ننعم بالحياة كما ننعم  
اليوم ، ولولا وجود الورود ما عرفنا جمال الزهور ، ولولا  
نعيق الغراب ما شجانا البلبل ، ولولا البغض ما عرفنا الحب  
فالرجل مجبول بفطرته على حب الجمال ، والمرأة هي محط  
ذاك الجمال ، فليحب الرجل كما شاء ، وليتنقل بروحه الهائلة  
من دوح الى دوح ، على شريطة أن يكون صادق الحب  
وأما ان يختلط بين الصدق والكذب ، ليستغل الحب في  
تحقيق رغباته ، فتلك أغلوطة الحياة الكبرى ، أنه يسىء  
الى نفسه بقدر ما يرجو من إحسان ، لأنه لا يحكم قلبه وعقله  
في جمال ، ولكنه يجرى وراء شهوة نفسه . والشهوة أبداً  
نزاعة الى السوء . أجل الرغبة تدفعه الى المجون . والمجون  
يهوى به الى الحضيض ولا خير في رجل يسف ، أجل ولو  
حكم الرجل قلبه وعقله ، لسكان صادق الحب ، ومن صدق

حبه فقد حسنت دنياه ، ومن حسنت دنياه فقد كسب  
الحياتين . لبثت أخته تزورني من حين الى حين ، وهى فى  
كل زيارة تحاول التغلب على بدموعها وحديثها وأنا اتكلف  
الجمود ، وأدفن المرارة ، وعولت على عدم زيارتها تمهيداً لما  
انتويته من قطيعتها ، وكم كانت تهيب بى ان أزورها وعشاً  
ما أرادت ، ولست أنسى يوم جاءتنى ، وقد اتشح وجهها  
بنقاب الهم العميق والقلق الشديد ، فبعد ان بكت طويلاً  
استطاعت بعد جهد ان تنبئني بأن أخاها قد برحت به المرأة  
حتى بات تحت رعاية الطبيب وحده . وقد رجتنى ان أرافقها  
لأشاطرها العبء فقد اضناها جهد تمريضه ، وألم عله ، لأن  
والدته عند ابنتها منذ أسابيع وتخشى ان ترسل اليها وهى  
مريضة القلب فتسئ اليها من حيث لا تدرى ، ولم يسعنى  
ازاء توسلها الا ان أرافقها ، فقد أدركت خطورة الحال من  
دموعها وحديثها ، وقد عودتنى الصدق والصراحة ولم اك  
ابلق مضجعة ، حتى لقينى طبيبه بألم مرير ؛ وقد تكلف

الابتسام ثم صاحني في مرارة فبادرته سائلة : أو حالته  
خطرة ؟ فغمغم في بأس وخفوت ؛ أتمنى له الشفاء على يديك  
وحولت نظري الى المريض فاذا هو في غفوة عميقة تبدو  
على وجهه ظاهرة الداء المبرح فمدت يدي بهدوء لأجس  
نبضه ، ولكنني اضطربت حينما سمعت نغما متقطعا خافقا  
يخرج من بين شفثيه في شبه كلمات متقطعة لا أواخر لها  
حيه ... تعالى ... لأراك ... ثم أمو ... سأنتظرك ... هناك  
حيث لا نظم ولا فلسفة ولا خوف فخانتني عيناي ، واشتد  
وجيب قلبي ولم استطع كبج جراح عواطفى ، ولعل الطبيب  
ادرك ذلك فنظر الى فى عطف ورثاء ثم قال : إنه يهذي ،  
قلت والدموع تنهمر ، أيطول ؟ فطمأننى وفى صوته رعشة  
الألم المكبوت ، وفى عينيه التماع الحزن والعطف والرجاء .  
وبعد ان عالج الطبيب اغفائه تحرك وفتح عينيه ، وخشيت  
أن يلمح ظاهرة الكمد والحزن على وجهى فتواريت خلف  
الطبيب لأجفف دمعى ، واقترب منه الطبيب باسم وداعبه

في رفق قائلاً : ألا تصحو ؟ إنها بجوارك قال من ؟ فهمس  
في أذنه من تحبها . فأرخى المريض جفنيه ولم يجب وتمشت  
حرارة الحياء في شراييني فابتعدت عنهما ونظرت الى الأخت  
نظرة سريعة فهمت معناها ، فاقتربت مني وهمست في أذني  
إن الطيب صديق الأخ منذ الطفولة ، وهو كاتم أسراره  
فاطمئني اليه لأنه على خلق عظيم ، طيب القلب كريم النفس  
كامل الرجولة ، وسمعتها الدكتور فابتسم في دعة وقال  
بصوت خفيض : يا آنستي ترفقي بي من أجل الواجب فقط  
ثم دنا من مريضه وخاطبه ... هيا ... تكلم ، فأجابه بلهجة  
متقطعة ، لقد قربت الساعة يا دكتور ، فقال الدكتور :  
ستميش طويلا وطويلا جداً ، وسوف تنال حظك من  
السعادة التي ترجوها ، فاغتصب المريض ضحكة فيها رنين  
الألم الممض وقال : أحقاً أننا نلتقي بعد الموت بمن نحب ،  
فربت الدكتور على كتفه وخاطبه في رفق : أوتذكر احلامك  
في الصغر ؟ لقد كنت بعيد النظر وما لك اليوم لا تصارع

رغبات نفسك كما كنت تفعل ، وقبل ان يجيبه المريض  
قلت : ما علته يا دكتور ؟ فالتفت الى وأجابني وعلى ثغره  
بسمة غامضة : اظنه تهاون في رعاية نفسه ولأنه لم يالف  
برودة الجو ، فقد واثته حمى طفيفة قد نزول بعد حين ،  
ففرحت بيني وبين نفسي وابتسمت بدوري ، وشئت ان  
اقول له : ومتي يعافى ؟ ولكنى قبل ان أتكلم توصل الى  
ودفعنى برفق اليه دون كلمة فقلت وأنا أحاول ان أبدو امامه  
هادئة : أتمنى ان تكون بخير فأجبنى : ما دمت فأنا بخير  
قلت : ولكنك تمارض . أليس كذلك ؟ أعجبتك راحة  
السرير فابتسم بسمة تنفس فيها آهة حارة وقال : من ادراك  
أقربك ؟ قلت قلبى يحدثني أنك ترجو قال : وما ارجو !  
قلت : عروسك . فعانقتني أخته وقالت رحمتك يا عزيزتى  
تذكرى انه مريض وأيدها الطبيب بقوله ، ان الرحمة وليدة  
قلب المرأة فكونى به رءوفة عطوفة يا آنسى وقد استدعيتك  
لأستعين بك على شفائه وبرئه ، فكونى عند حسن ظنى

فيك وإني صديق حميم له ، وأعرف عنه ما يعرفه عن نفسه  
وبحق هاته الصداقة أتيح لنفسى هذا التدخل بينكما ،  
فاعذريني يا آنسة قلت وأنا أتخشى ان أرفع نظري اليه لكيلا  
يامح ما يبدو في عيني من خجل وألم ؛ وأظن ظواهر ذلك  
علت وجهي فأحسست أن الدماء تكاد تنهمر منه وغمغمت  
في حياء . أطمئن . فابتسم شاكراً واستأذن منصرفاً على ان  
يعود سريعاً فيلقاني ، وأظنه تعمد ذلك ، وتقدمت الأخت  
من أخيها ، وداعبت خديه في حنو وهمست في أذنه بنغم  
منسوع : إنها بقربك فاصح - تشجع - إنها حزينة من  
أجلك ، فقاطعها ... آه إنها ... فتقدمت منه وعطفت عليه  
ثم قلت ترجو لك الصحة والعافية ، فتغاضى عني وخاطب  
أخته : إنها تريدني مرضاً على مرض . فترفقت به وقلت :  
أهكذا تظن ؟ قال والأسفاه ، قدمت لي كأساً شفيفة ولكنها  
ملیئة بشراب تكفي الجرعة منه لقتل أقوى قلب ، قلت ترفق  
بنفسك فان الوهم مضمّن ؛ قال أولست أنت ؟ قلت : بلى



قال : أنت وهمى قلت إذن دعنى أتقشع ، قال وهم الخلود  
أعنى ، فأنت باقية ما بقى الخلود ، قلت حتى فلسفتك تواتيك  
فى منامك ، قال إن الفلسفة ادراك الحقيقة ، وأنت حقيقة  
إدراكى فى يقينى قلت : فكر فى نفسك فقط ، ودعك منى  
حتى تتعافى قال : إذا كان فى مقدور الإنسان أن يصد عنه  
تيار عاصفة جارفة ، استطعت بدورى أن أصد تيار عاطفتك  
إنها عاصفة مدمرة أخشاها ، فخنوت عليه وقد شعرت أن  
كيانى يحترق ببطء ، ومررت على جبينه فى صمت وكأنه  
أحس بحرارة حزني تسرى اليه عن طريق يدي ، فأغمض  
عينيه فى شبه غفوة وتنهد . وشئت أن أخرج به من صمته  
فقلت : أترأك تحلم ؟ ففتح عينيه ولعله شاء أن يجيب عنه  
دمعه ، قلت وأنا أجفف مدامعه ؛ وقلبي من فرط اللوعة  
يكاد يفر منى .. والآف أتدعنى ؟ وفى الحق لم أرغب  
فى الانصراف إلا خوفاً عليه وعلى ؛ ولكنه قال بصوت  
حزين : الى أين ؟ قلت أنصرف ، قال ظننت ، قلت : وما

ظنك ؟ قال أدعوك الى عالم احلامي فنحيا هناك سويا نستضيء  
بضوء الكواكب ، ونمرح في الفضاء غير المحدود ، وننعم  
بحياة الطلاقة والصفاء حيث لا قيد ولا عناء ، قلت بصوت  
يشف عن رغبتى ، بى ميل الى تحقيق ذاك الأمل ، ولكن  
صوت الضمير ينهاني . قال : لم توارين الحقيقة خلف الضمير  
قلت ما دمننا نرغب في السعادة المتدفقة من القلب والطمانينة  
المستقرة في الروح ، فيجب أن نركز هاته الأمانى على محط  
الضمير . قال : يا ظلامك ، ومتى اهاب بنا الضمير الى الشقاء  
قلت ، إنه لا يفعل ، ولكن الإنسان يعيل الى مغالطة ضميره  
مرضاة لرغبة يرجوها ، قال : وما دامت الرغبة بريئة طاهرة  
فالضمير يتعالى على أباطيل السوء . قلت . يسرنى انك تتكلم  
بلسان المعافى ، ولا شك أن انحرافك ولي عنك ، قال :  
ما دمت بجواري فأنا على أحسن حال ، قلت . تعبير لطيف  
تشوّهه المجاملة بوى لو تتجنبنى .. لأعرف مدى قوة الرجل  
فتأفف وتأوه وقال : أف منك يا ... لآخر مرة أحب ان

أقول لك الحقيقة التي أعرفها ولم أعرف سواها هي أني لا  
أحب إلاك . قلت : آه خانك عقلك ، أنسيت نظرية  
التجديد ؟ إنها تسرى حتى على العاطفة . آه عروسك ،  
ثم ارتعشت شفتاي على أثر مدامعي ، فعضضت عليهما حتى  
كدت أقطعهما من فرط الألم ، فتململ ملتاعا وهاجمته  
دموعه ، فأرخی جفونه وظل هكذا على صورة هادئة ، وأنا  
حياله جزعة هائمة بروحي حوله غير قادرة على صد اضطراري  
وأخيراً استطعت بعد جهد أن أوارى همي وأداعب أصابعه  
في هدوء وحنو حتي انتشى وفتح عينيه . فقال بصوت  
خفيض : أو أنت ؟ قلت : أو تشك ؟ قال بشغف : هيني  
ميثاقلك . قلت : لك بعد شفائك . قال بصوت صريح  
قد شفيت . قلت : إذن غادر فراشك . قال بعد الميثاق  
قلت : هيه وسكت وأطرقت برأسي . وقد أحسست أن  
الحرارة تسرى في وجهي ولكن شبه طيف وقف بيني وبينه  
يهمس في أذني - حذار ! فاستوي في جلسته ، وبدأ كأنه

تعافى حقاً والتمعت إشراقة الصحة في وجهه وبلطف النسيم  
سحب يدي ورفعها الى فمه فشعرت بأن الطيف قد توارى  
بعد أن هبت على نفحة حارة من لدنه قلت وقد قطبت جيني  
كأني غاضبة : أين حذرك ؟ قال أتضمنين برشفة شفاء أحيا  
بها أيتها البخيلة ؟ قلت : إذن تعافيت قال : هو ذاك ! قلت  
ها قد اطمأنتت فدعني أنسحب قال : ولكن ارجو ان أظل  
حياً . قلت ما دمت تعافيت فالحياة تحبوك أوليست العاقبة  
هي الحياة ؟ قال أو تجهلين ؟ قلت قد اكون جاهلة - لا  
أدرى - فأرخى ذراعيه في شبه استسلام ورفع بصره الى  
كأنه يتوسل وقال بصوت رزين ، الشفاء هو الحياة والحياة  
يا حبيبتي هي الحب وكأس الحب فاك فهيئني رشفة منه .  
قلت : ولكن الكأس لا شراب فيها فلا تطمع . قال أنا  
أعرف بدخيلة الكأس ! ونجاة دخل الطيب ونظر الى  
المريض مستريحاً لحاله ولمح على وجهه بهاء الرضا وفي عينيه  
التمتع الصحة فربت على كتفه وقال : أراك شفيت ؟ فأجابه

يا له من شفاء ! ولكن الناقوس دق والمصلي لم يتم صلاته  
فقال الطيب مازحاً : ان كثرة التعبد كفر ... ! وهممت  
بالخروج متعثرة فاستوقفني الطيب بنظرة توسل وأشار  
الي في خفاء واقترب مني وهمس في أذني بحذر : أهنتك  
يا آنستي فقد برعت في تطيبك وفي لحظات عاجلت مرض  
أيام قدر لي أن اقوم بتمريره فأنت له خير من ... وهنا قطع  
حديثه على إثر صوت الخطيبة وهي تخاطبه أنسيت مريضك  
يا دكتور ، وقد دخلت على غفلة ولم نشعر بها ثم رمتني بنظرة  
عييت عن تفهم معناها وهممت ان أصافحها ولكنها غضت  
الطرف عني متشاغلة بخطيبها ؛ أذهلني ذلك وأشكل على  
الأمر وخشيت أن يكون قد جاءت من زمن ووقفت  
متوارية لتسترق السمع ... لا بد ... لا بد ... نظراتها تخيفني  
على أني حاولت ألا أبدو أمامها مضطربة فاغتصبت بسمة لها  
وقلت أن مريضك طلبك كثيرا وكان علي وشك أن يبعث  
إليك رسوله فضحككت وقالت متهمكة : هل أوحى إليك ؟

ثم اتجهت نحو المريض وناجته بأعذب ألفاظ الجنان ولكنه  
لم يتحرك وأظنه تغافل ولبثت تداعب شعره بأصابعها وتعطف  
عليه وهو لاه عنها كأنه في شبه نوم أو تناوم ، كانت صورتها  
فاتنة أعني صورة عطفها وحنانها على مريضها وقد جعلتها  
العاطفة فبانت لناظري معجزة سحرية وكأن الطيب أخذ  
بفتنتها وروعة موقفها فظل ساهما لا يتحرك ولا يتكلم يتلهى  
بالنظر الى المريض أنا والى محتويات الحجرة أنا آخر ولكني  
كنت ألاحظ في خفاء استراقه النظر اليها في عجب ولما  
عيل صبرها خاطبت الطيب أراه نائما وأظن الطيب كان  
أعرف بدخيلة أمرها فأجابها بصوت حزين يشف عن الحسرة  
الدفينة على حظها ... نعم أنه نائم فدعيه يستريح ولحت في  
عينه ما يقوله لها لولا احترام عواطفها . اجل لولا ذلك لقال  
لها إنه لا يستحق رحمتك وعنايتك وحبك دعيه فانه يبغضك  
وانسحبت أنا دون كلمة وشاءت أخته ان تستبقيني ولكني رفضت  
بدعوى الحرص على كرامة الخطيبة ، وضرورة العودة الى

المنزل لشأن فيه . وعدت الى نفسي بعد أن خلوت بها  
فامست دخيلتها وادركت الحقيقة المخبوءة خلف كبريائي  
واحسست ان الحب قد سرت حرارته في شراييني ورأيتي  
أسبح في عوالم مشرقة جديد فيها سحر وزوارة وفيها فتنة  
وجمال . ولكن كأن مبضعا كان يحز في قلبي فيحملني على  
التوجع في خفوت ووددت لو أبيع نصف عمري لشفاء دواء  
يشفي ذاك القلب الوجيع .. قد احببت ! يا للهول ! واخيرا  
وبعد طول عناء ؛ فكيف أتصرف ؟ هل اسير طوع الحب  
غير عابئة بغيري ام اطوى نفسي علي عاتي لأقضى علي قلبي  
ليحيا غيري ؟ وتنزل علي شبه صوت من السماء رن في أذني  
لا تعصني بحب الخير في سبيل حب الذات ؛ وحيال هذا  
الخاطر ارتكز فكري على محط عقلي وعلى ضوء الخير ؛  
رأيت الحق يقضي بأن أنسى كل شيء ، عدا الشفقة على  
عاطفة الخطيئة . فقلت لنفسي : ولكنه لا يحبها وقد يشقيها  
فقلت لي نفسي ولكنها تحبه وقد تسعده فينساك . وهنا



صح عزيمى على أن اكون القربان على مذبج الخير فى سبيل  
إسعاد أخت لى فى الأنسانية ! فتعز أيها القلب بهذا الخير  
المخالص واتخذ معوانا لك على الشفاء !



حبست نفسى داخل منزلى لا أرى أحدا ولا يرانى  
أحد لأن نفسى المهمومة واحلامى القاتمة حملتنى الى دنيا العزلة  
والانفراد حتى لا أشوه جلال هذا الصمت الذى يخيّل الى  
ان راحة نفسى متعلقة به كما حملتنى ان أحنو عليها وأرفق بها  
فليس عندي من يرعاها وبعد ايام ثلاثة وصلتني هاته الرسالة :  
عزيرتى

يا لصفاء قلبك !! أتعرفين الفتاة التى تساهمين فى سعادتها  
وتقدمين نفسك قربانا على مذبج إنقاذها ؟ انها رمتك  
ورمت صديقنا الدكتور بما لا تحبين فقد قالت - جزاها الله -  
أنها دخلت لتعود خطيبها فوجدتك بقرب الدكتور وهو

يميل عليك ... والآن كوني عذيرتي على سرد ما تكرهين  
وشفيعي لديك استجابتك لنداء قلبك والعناية بأخي الذي  
يحبك ولعلك تعرفين بعد الآن من ذلك الحادث ان تلك  
الفتاة التي تضحين في سبيلها بقلبك ونفسك غير جديرة  
بالتضحية .

وبعد فتعالى الينا على عجل فأخى يدعوك ليل نهار ، وقد أمرني  
أمس أن أوصد عليه الباب وألا أسمح لعروسه بالدخول عليه  
بعد الآن . وقد آلمني أكثر أنها أساءت الى الطبيب من  
حيث لا تدري ، فقد شاء أخى ألا يعود مع أنه طيب  
الأسرة والصديق الوفي منذ الطفولة ، على أنى وارىت سوء  
تصرفه وأفهمت الطبيب أنه سيسافر عند أخته . ولعلك  
تدركين مبلغ حب أخى لك وكيف ضحي بصديقه في سبيلك  
يا عزيزتي حسبك ما فعلت وعودى الى الرحمة التي ما فتئت  
تغمر قلبك الطبيب الرحيم . ودمت للمخلصة .  
فيا لهول ما رأت الخطيئة الكاذبة المجرمة .. بأي عين رأتني

وكيف أباح لها ضميرها أن تسيء الى فتاة دون جريرة اقترافها  
قد يكون لها العذر وقد لا يكون . قد يكون لأنها مغبونة  
وقد لا يكون لأني أبداً أمامها حذرة . ولكنه الشك ،  
الشك الذى يتلاعب بذهن كل إنسان وكم عذب من قلوب  
وضمائر ، وكم حطم من بنيان عتيد . بوى لو تقضى القوة  
الهائلة على الشك الذى يطغى على الحياة ويشوه الحقائق ...  
الشك يخامر كل ذهن ويصل الى كل قلب حتى الذهن  
الخصب والعقل الناضج . والشك يولد معناً ، وعلى حسب  
نزعات الإنسان يشتد او يضعف ، وعلى حسب الوازع يبدو  
أو يختفى . أنا لا أعيب على الخطيئة تصرفها لأني اعرف هم  
قلوبها ، ولكن من يبرئني اذا ما وصلت هاته النقيصة الى  
سمعه ؟ وهكذا الأقاويل تحمل بالأصباغ وتحلى بالمحسنات  
الفكرية لتنال حظها فى سوق الأباطيل !

لقد قضيت بعض الليالي قعيدة هم ناصب وفكر شاغل  
حتى جاءتنى الصديقة يوما وأخذت ترجونى ان أرافقها لمنزلها

ولكنى رفضت ذلك في لطف ووعدها ان أزورها قريباً ثم  
عاد بنا الحديث عن الخطيبة وتصرفها وواجب انتقامي منها  
لكرامتي المنتقصة وكانت الصديقة حانقة عليها ، فأخذت  
أقلل من حدة هاته القسوة ، وآلئني أن تضيف قسوتها إلى  
قسوة أخيها وقسوة الأيام عليها وشئت أن أصور لها مبلغ  
أحقيتها في تصرفها فقلت : إنها تصون حبا وتحرص على  
خطيبها وهي فتاة عادية تعلمت عن طريق الوراثة ، فكيف  
تحتمل أن يخون الزوج وزوجه والخطيب خطيبته من اجل  
فتاة ثم مر ، بذهني خاطر غريب فابتسمت على مريض وقلت  
حسن يا صديقتي ما حدث ، إنها حسنة تسوقها الينا الأقدار  
لنتعاون بها على إطفاء جذوة حب أخيك المشتعلة فابثني له ما  
حدث وتعالى اليه بالخطيبة في جو أنقي وأطهر ، دعيه يظن  
بى سوءا فقد يذهب ذاك المنطق بعاطفته فينساني وهذا ما  
أريده ... لقد ابتسم القدر للخطيبة بسمة عريضة أتمنى أن  
تظل وضاءة حتى تشيع على قلب الخطيب فيحبو خطيبته

بالحب والولاء . وظلمت دائبة على الصمت لا يعنيني غير أن  
يمر اليوم فأحمد الله أن تقص من عمرى يوما ، ومللت كل  
شئ حتى الكتابة والقراءة والرسم والموسيقى وعدت ارجو  
ان يقيم بينى وبين الخطيب سدا منيعا ، وعامت فجأة عن  
طريق الصديقة أن أخاها سيغادر هاته البلاد الى فرنسا  
للاستشفاء وقد صح عزمه على السفر بعد أيام قلائل وأهابت  
بى لتوديعه وبعد حديث ملح وعدتها بالذهاب على شريطة ان  
يكون ذلك على المحطة ليكون الوداع قاصرا على تحية عجمي  
فلا أضيف الى هموم الخطيبة هما جديداً ولا أوقظ فى نفسه  
مشاعر قد تكون أوت الى الرقاد . وحان موعد سفره  
فتوجهت لتوديعه وراح يسعى الى متباطئا شاحبا ، ولما دنا  
منى تركتنى أخته ولعلها تعمدت فلم أحاول الفرار حرصا على  
كرامته وخشية أن يظن بى الظنون . صاحنى بحرارة وشد  
على يدى ليضع فيها قوة عاطفة - على ما أظن - ثم قال بصوت  
خفيض : طمأنينى .. أصحيح ما حدث ؟ قلت فى عجب

ماذا ؟ قال : لا توارى : أصبح ان الدكتور ... فاعتصبت  
ضحكة وقلت : أوه أما زلت تذكر ؟ صدقتى ان ذاكرتك  
قوية ... لقد اغتصبها وتمتع بها فيما أعتقد ! فبانت في وجهه  
سورة الغضب وقال : لا .. عيناك تكذبان لسانك ! قلت  
في بساطة : وماذا يهمك ... انت على سفر الآن فلا تهب  
وقتك لغيرك ودعني اقول لك : أتمنى لك الصحة والسعادة  
هناك . قال : آه .. إني غيور .. غيور من الخيال ؛ غيور  
الى أقصى حد ؛ ثم عض على شفته ومز يده على جبينه  
متأففاً ثم أردف : لك الله ! قلت : لقد حدث ما حدث  
على غير ارتقاب . على كل حال كفاك نبل عروسك فوارى  
المرارة التى علت وجهه خلف بسمة قصيرة وقال : كل شيء  
فيك يؤكد براءتك . ثم سحب يدي فظننته سيصافحني  
ولكنه استطرد : اكتبى لى دائماً لأستمد منك قوة ترتفع  
الى السماء فيهدأ بالى ويطنن قلبى .. اكتبى الى ولا تحاولي صد  
تيار عواطفى بالحذر والتحفظ فان ذلك يشوه جلال الذكرى

والحب . وكان يتكلم وكأنه يختطف الكلمات من أعماق قلبه  
ليسوقها الى هينة وكنت استمع اليه على حين ظل نظري  
عالقاً بالأرض ثم تطفّر خواطري الى السماء فأتابعها ولم  
أستطع ان أرد احلامه الى حظيرة الصد لعلمى انه على سفر  
وفي حاجة الى السلوي والعزاء ولما لم اجبه سكت قليلاً ثم قال  
أنا واثق من انك ستحرصين على حبي وستكونين لي أليس  
كذلك ؟ قلت ... قال : تكلمى ، فلزمت الصمت ايضاً  
قال : كلمة واحدة اريد ان أسمعها لأستعين بها على حكم الأيام  
على ، وهنا جاءت العروس والشحوب يغالب ألوان التجميل  
وقالت : انهم يريدونك ، وقبل ان يتكلم قلت : انه يحدثنى  
عبك . فانزوت مني ونظرت اليه لتحمله على واقعها فلم آبه  
وأتممت : يوصينى بك خيراً ويحتم على زيارتك والعمل على  
سلوتك ، لأنه لا يطمئن الى أخته لكثرة مشاغلها المنزلية  
وتركتها وسرت الهوينى وحدي بعد أن أشرت الى الصديقة  
ودق الناقوس معلناً قيام القطار فمال عليه الجميع يقبلونه



ويصافحونه والخطيبة تبكي من فرط التأثر ، وهو سارح  
يبصره ، يرد تحياتهم في اقتضاب ، وأنا في مكاني ذاهلة ، لا  
أقوى على النطق والكلام وفي هاته اللحظة أدركت حقيقة  
تصرفي الخاطيء ، وتنازعني خواطر مؤلمة ، ووددت لو افديه  
بدمائي . اجل لقد سافر ، ولعل القدر شاء ان يسخر مني ،  
فسلبني هدوء نفسي ، واطمئنان روحي ، وبات قلبي خافقاً  
وثاباً ، كأني يـرغب في الفرار الي حيث لا أدري ! وفي دقيقة  
واحدة ، تنازعني رغبات عديدة ، بين الحب والبغض ،  
والرغبة والكبت والمتعة والحرمان ، وظللت هائمة في فضاء  
هاته الرغبات أحلق في السماء آناً ، وأهبط الأرض أحياناً ،  
أود كل شيء ومع ذلك بي عزوف عن أي شيء ! والعجيب  
ان الأيام راحت تمر بي متشابهة مملة وانية ؛ وشعوري يزداد  
قوة وغموضاً ولهفة ؛ وأنا احترق تحت نير مشاعري  
وخواطري ؛ وتبدو لي الأحلام التي ألفتها وضاءة ؛ قائمة  
والأخيلة التي تراودني متحركة باسممة ؛ ساكنة واجمة ؛ كما

كانت عواطفى أحيانا تتلاشى خلف ضميري الذى يقضى  
أمامى وجه الحقيقة ، فأراها على غير ما عهد بها حزينه كئيبة  
وأرى طيفى فى زاوية القدر أمامها وهي حياله هادئة ، تود  
ان تخنقه - لو استطاعت - لتفسح لها الطريق ؛ ثم أرى  
طيفى يتضائل أمامى وأشعر أنه بات لا وزن له أمام  
ناظرى ، وأنه لا يمتاز بشيء عن الأطياف الوضيعة ؛ تلك  
التي تقيم سعادتها على انقراض غيرها وتشيد أمانها على تحطيم  
أمانى غيرها . هنا ادركت الحقيقة الواقعة الرهيبة ، وتحت  
تأثير هذا الإدراك ظلت أبكي حتى استفقت الى نفسي ،  
ورأيت الحقيقة على غير ما رأيت ، رأيتنى لم أجن ذنبا وكل  
ما هنا لك أني اسير فى طريق لا حب مليء بالأشواك وفى  
مقدورى ان أنزع عنى الرخاوة واللين ، فأمد يدي بقوة الى  
هاته الأشواك ؛ فأزيلها لأهين الطريق للسائرة الضالة  
هناك ، وفى مقدورى ان أزيح من أمامها ضباب خيالها ،  
لتبدو الحياة أمام ناظرها كما تحب وتهوى ، وفى مقدورى

أيضا أن أعيش في سماء أحلامي لاهية بخيالي ، ما دام الله قد  
خلقني طليقة الروح ، ثم يترد إلى فكري البعيد ، فأسأل  
نفسى .. ترى أتسعد الخطيئة إذا شقيت أنا ؟ ويفتر الغيب  
عن بسمه مريرة فيها التماع السخرية الخاطف ، ثم يهمس  
إلى هذا الغيب بأن كلتنا ستعيش شقية ؛ فهو يحبني ولن  
أستطيع أن أبادله الحب ، وهي تحبه ولن يستطيع أن يبادلها  
الحب ، ثم أسمع من وراء الأجيال صوت الشاعر يوقع على  
قيثارته لحنا شجيا محزنا ! وتفتقر شفتاي أنا أيضا عن ابتسامة  
ساخطة ، وأضحك ضحكا هو إلى الجنون أقرب ، وتمر أمام  
خيالي صور النساء الضاحكات الباقيات اللاهيات ، فأرى  
شبه طابع على وجوههن هو بعد التفرس طابع الشقاء فتعود  
إلى ابتسامتي الساخطة ، وضحكي الجنوني ؛ أمقدر لهذا  
البلد أن يشهد سعادة امرأة سعادة أكيدة ؟ أمقدر للتاريخ  
أن يسجل أنها وقفت في دنياها عن طريق قلبها ؟ لقد عاشت  
المرأة طوال الأجيال شقية بعواطفها ؛ راضية عن شقاوتها

فألى متى تخضع لنير عبودية التقاليد والأوضاع غير المشروعة ؟  
أجل الى متى تخضع هذه المرأة التى قضى عليها قانون الحياة  
بسجن القيد ؛ فشوه محاسنها ، واستذل عواطفها ، حتى  
عجزت عن تأدية رسالتها عن طريق الكمال المطلق ؟ وفي  
الواقع أن صحو المرأة فى هذا القرن ، وانتشائها بعد طول  
إغفاء قد فتح أمامها أبواب الحياة الصحيحة أمام بصيرة كل  
إنسان ، وشعر الرجل عن يقين بضرورة تحريرها تحريراً  
خالصاً للأمم ذاتها ، فليشد الرجل إزر المرأة بقدر ما  
يطمح فيه من سعادة وليفسح لها الطريق ؛ لتخطو نحو  
العلاء ، محطمة يسراها أغلال الشقاء .

بعد هاته الثورة النفسية الهائلة ، هدأت نفسى حيال  
خواطرى وكدت أنسى خواطرى الألفية ، وقد ظننت أن  
الخطيب تناسى ماضيه بحاضره ، فلم يكتب الى ، وسرني  
هذا التصرف ، إذ أدركت أن الله قد حباه روح السلوى  
ولكن على غير ارتقاب جاءني هاته الرسالة :

## حييتي

ما الحياة اذا خلت منك ؟ أنت ينبوع استمد منه الحياة  
فيحلولي ان أعيش منه وله ، أنت دنيا ، وأنا عبد الدنيا  
وأسيرها ، أنت نور ، وأنا خلف النور أسير ، أنت إلهة الفن  
وأنا فنان أعبدك ، أنت قبس من عند الأله ، وسأظل أرنو  
للقبس حتى أنال حظي أو اهلك دونه ... أنت .. أنت ،  
ولا يفسر معنى أنت إلا أنت ! إن قلبي معبد أنت ناقوسه  
فاعزفي فيه أغاريد المحبة ؛ لأحظى بالجنة التي وعد الله بها  
عباده المقربين ! افتحي عينيك الجميلتين لأرى فيهما قلبي  
وهو يترنح كالتمل كلما بدا له كأس تغرك الفاتن في عالم الأحلام  
إن الحياة هنا فرحة مرحة ، ولكنها لا تهز حسي ، أو ترفه  
عن نفسي ، لأن خواطري ومشاعري لا تستجيب إلا لك  
ولا تستمد وحيها الا منك ، وهأنذا قد بدأت أشعر بأن  
الحياة بعيداً عنك ؛ ضرب من السامة والعذاب ، فترفقي  
واكتبي لي ، فعبسى أن يتم شفائي ، فأسارع الي كنفك الظليل

ولك من الأشواق فوق ما تحتملين» أثرت رسالته في نفسي  
حتى لأوشكت ان تفسد على كل ما انتويته ولكنى عدت  
فقلت لنفسي : حذار فأب ما قرأت ليس الا نزوة طارئة  
سوف تزول ؛ ثم عن لى أن أسلم نفسي الى الصمت ، فلعله  
يئأس ، فينصرف عني الى خطيئته ، وزغم هذا الصمت فإنه  
دأب على مكاتبتى بمثل هذه الرسائل المشبوبة ، حتى اضطررت  
الى الكتابة ، فكتبت اليه رسالات موجزة فاترة لا تخرج  
عن الاستفسار عن حاله ، وتذنيه الى ألا يضايقنى بأحاديث  
الحب التي برمت بها واذا كان ولا بد فليكتب عن المرأة  
هنالك والفن والحرية والعمل .

ولقد علمت من أخته انه لا يكتب الى خطيئته إلا في  
النادر ؛ كما علمت أنه كتب الى والدته يحتم عليها ان تعمل  
على التحلل من هذه الخطبة ، وقد هالنى حقاً هذا النبأ فحاولت  
من ناحيتى ان أثنيه عن عزمه ؛ وهيئات ان أوفق ، فقد  
تغافل عن هذا الشأن فى رسائله الى ، كما نفدت والدته مشيئته

ولكن هذه الصدمة نالت من نفس الخطيبة فأسلمتها الى  
مرض شديد ، عانت فيه صنوف العذاب ، وألوان الآلام  
ولازمها شعور اليأس والقنوط من الحياة ، والأنسان الغرور  
فقبعت في عقر دارها لا تزور ولا تزار ، وأخذ الناس  
يخلقون حولها الأشاعات ، ويرتجلون الأقاويل ! وبالله المرأة  
البريئة من أقاويل الناس ! إن تجارة الأقاويل رابحة في سوق  
الأباطيل وكأن النفوس البشرية جبلت على حذق هاته  
الصناعة ! أما هو فقد ظل يكتب الى مدى عامين ، في  
عاطفة متأججة ، وأخيراً تعطلت رسائله دون ان أعرف  
لذلك سبباً ، ولكني أيقنت انه شفى من دائه وأكده الى  
ذلك ، ما علمته من انه اعتزم العودة قريباً ، ولعب الشك  
دوره إلا انه شك ضعيف ، اذ خيل الى ان الرشد عاد اليه  
فعرف قدر خطيئته - رغم فسخ الخطبة - وكثيراً ما تعرف  
قيمة الشيء بعد زواله . وهنا حرت في تفهم عاطفة الأنسان  
او بالأحرى في تفهم عاطفتي ، فقد انتابتنى حيرة غامضة



وبدأت أحس أني أحبته بقدر ما دفعته عن طريقى ، وكأن  
لحظة صحو صرت بي ، فاذا بي أدرك ان القلب الأنساني  
دائم التطور . ولكن ماذا حدث ؟ أو ليس القلب يحيا  
ويموت ؟ ومتى استقرت النسمة فى مكان ؟ إن الفضاء  
الواسع ، وإن الرياض المليئة بالأغصان النضرة ، وأشتات  
الطيور التى ترحم الفضاء ، طلباً لغصن ترتكز عليه فى  
اطمئنان ، بيد أن هناك فى زوايا قصية طائراً حائراً لم يجد فتناً  
يتشبت به أو يستريح عليه ، فليبق هكذا حائراً حتى يأذن  
الله له بالهداية والهدوء !!



وجاءتني أخته ذات يوم منبسطة الأسارير وهي

تقول : بشري يا صديقتي ! قلت : خيرا ، فقالت : سيعود  
أخي بعد أسبوع ، وحبذا لو تشاركيننا سرورنا . وهنا  
أحسست ان قلبي يخفق خفقات تؤذن بقرب حادث جديد  
كما اتابني شعور غامض ، يمتزج الفرح فيه بالألم ! ولكنني  
بلاطف اعتذرت عما دعيتى اليه ، دون ان أدري سبب هذا  
الاعتذار ، ثم اضطرت اخيرا أن اعدّها بالزيارة في القريب  
بعد إلحاحها الشديد ، ومرت الأيام وأنا اتخيله أنا راضيا عن  
دنياه ، وآونة برما بها ، ساخطا عليها ، وقد وطنت نفسي  
على احتمال جفائه ، فاني اعرف انقلاب الحب الى قسوة او  
انتقام ، اذا لم ينل المحب رغائبه ؛ وسرت حرارة عدم  
الاستسلام في دمائي فانتشيت اذ أحسست بقوتي وأيقنت  
ان المرأة في مقدورها مصارعة الخطوب ، ومقارعة الالهواء

ألا ان طيف الخطيئة تراءى لى واجها حزينا ، فتألمت له ؛  
واشفقت عليه ، ولكني تمنيت ان يلهمه الله الصواب فيعود  
الى خطيئته ، فأكون قد أسديت الى كليهما يدا ، تنطق  
بقدره المرأة على التضحية ومعالجة ما استعصى من الأمراض  
الاجتماعية ، كما ان فى وسعها ان تهيب لنفسها حياة ، تركز  
على الصدق ؛ محطمة فى سبيل ذلك مطامع المتطفلين ،  
ورغبات اللاهين ، وان تسعد نفسها وشريكها وشعبا بأسره !  
نعم فى مقدورها ان تفعل كل شىء اذا عرفت كيف تصوغ  
كل شىء صياغة جميلة بيدها الصنّاع ؛ ولكن أياكون حظ  
المرأة المجدة العاملة الوفية ، حظ اللاهية المتبذلة الغادرة ؟  
وترقبت ان اسمع جوابا لسؤالى ، ولكني لم اظفر بغير  
الصدى ؛ وعدت الى نفسي اسئلتها ..... أو ليس بد من  
أن ألقاه ؟ فقالت نفسي : بلى ! لا بد ، قلت : ولكن  
أوليس من الأصح الا أشعره باهتمامى حتى لا يفتح قلبه عن  
عاطفة قد واراها الزمن ؟ فقالت نفسي : فى مقدورك أن

تقابليه في احتشام على صورة لا تبيح له الاسترسال في أخيلته  
أو تعيده الى دنيا أحلامه الماضية ولكي يعتقد أن جفائه  
الكتابي وسكوته الأخير لم ينالا من نفسك ، وسيان عندك  
كتب أم لم يكتب وأحبك أم لم يحبك بل تعمدي أمامه  
الاشتغال بأمر دنياك كأن هناك ما لا يعلمه يملك عليك حسك  
ووجدتني إزاء حكم نفسي ساكتة ولأمرها خاضعة  
وبدت صورة الحاضر أمامي واضحة جلية ؛ فعاف قلبي حكم  
نفسى وصح عزمي على عدم لقياه ، حتى لا أهيب به الى  
الرجوع لماض فات ، ثم جرت شواغلي ذيل التناسي على هاته  
الخواطر ؛ وكدت أنسى كل شيء حتى جاءت الصديقة على  
غير موعد وعلى وجهها كآبة الحزن العميق والألم الغامض  
والاضطرام العميق .  
وبعد أن استقر بها المقام ظلت ساكتة على غير عهدي  
بها تحاول أن تنظر ، وعلى شفيتها تبدو معاني بعض كلمات  
تود لو تبدو ولكنها تختفي تحت تأثير مشيئتها على ما أظن ..

هالني أمرها وعجبت لحالها فأهبت بها لمصارحتي بما وراءها  
فأجابت وقد خيل الي أنها تصوغ الأجابة ، صياغة لا صرامة  
فيها : بي من الهم مالا أعرف سبيله ولا مأتاه ... قلت وأنا  
أحنو عليها : ولكنك تدركين بلا ريب موضع الألم من  
نفسك ، فدمعت عيناها ثم قالت بعد جهد بصوت خفيض  
لي صديقة لا تعرفينها ، أحبها صديق لشقيقها وبادلته الحب  
والوفاء ، وتعاهدا على الزواج لتوافق في ميولهما وطباعهما  
ولكن حدث أن انكشف حبها للأخ قبل أن يتقدم الحبيب  
لطلب يد الأخت فثار الأخ وعظم عليه الأمر وظنه جرماً لا  
نهاية لفظاعته ؛ ورد الرجل خائباً وهدد الأخت بوعيد جائر  
مع أن هذا الأخ نال من عذاب الحب أقصى ما يناله امرؤ  
وكان يمثل دور غرامه على مرأى من أخته فأساء إليها من  
حيث لا يدري إذ فتح أمامها باب العاطفة وأراها أضواء  
الحب وظلاله ، وأشعرها سحره وجماله ، وها هو اليوم ينكر  
ما للعاطفة من سلطان .

أدركت حقيقة قصتها من خلاصة حديثها وأحسست أنها  
تخجل أن تبوح بكل شيء وقرأت في عينيها صراخ قلبها  
الهائم ، وضجيج روحها ، وعذاب نفسها . فقلت مشجعة :  
أتراها أنت ؟ قالت بصوت المواربة : لا ... لست أنا !  
قلت وأنا أحنو عليها : وهل الحب جريمة ؟.. أقسم أنك !  
فارتاعت الفتاة وفاض بكاءؤها واضطرت حيال عطفي أن  
تصرح بأنها هي ... قلت : وما نتيجة عسف أخيك ؟..  
قالت والحزن يملأ صوتها : يحول بين الزواج ... قلت :  
وما وجهة نظره ؟ قالت : تبادل الحب بيننا فإنه يعترف  
أن تصرف صديقه خيانة له وتصرفي خيانة كبرى لا مبرر لها  
فضحكت في تهكم وقلت : يا لله أيحلل الإنسان لنفسه ما  
يحرمه على غيره ؟ كان يجدر به أن يتعظ بنفسه .. فلما  
كبرياؤها ومسحت دموعها والتمع في عينيها ضوء الارتياح  
وقالت في عزم : لا فائدة من تعنته .. أنا له وهو لي ...  
مهما قامت الحوائل بيننا فلن نستطيع الإنسان أن يفرق بين

القلوب التي جمعها الله تحت شريعة الحب والوفاء .. سنتزوج  
سنتزوج ... أعجبنى في الحق تمردها لأنه يثبت أن لها نفساً  
قوية حرة ولكني وأريت إعجابي وقلت : يا صديقتي رويدك  
ففي مقدورك أن تحمل أخاك على احترام ميولك وتقدير  
عواطفك بالصبر والأناة والحكمة ، وحاذري أن تشوهي  
رغباتك بتصرف لا يرضيه ... أنا واثقة انه سيخضع لك في  
النهاية ويحقق أمانيك ... عليها تجربة يريد أن يختبر بها  
قوتك وأرادتك فكوني قوية أكثر مما أنت عليه الآن .  
وهنا شئت أن أخرج بها من دنيا همومها الأسرى عنها  
فقلت : ولكن كيف حال أخيك ؟ فأغمضت جفניה وقالت  
قد جاء بخير ولكنه عاد من الغرباء . قلت وأنا أتكلف  
الضحك : وهل كنت تظنين أنه سيعود كما سافر ؟ ألا تعلمين  
ان المكث في بلاد كهذه البلاد وخاصة فرنسا بلد المدنية  
الماجنة والنور الخاطف كفيل بتغيير خلق شعب كامل لا  
رجل مريض ؟ الرجل هناك يمنح الى اللهو لأن الحرية أو



ما يسمونها كذلك مطلوقة العنان ومن يدرى يا صديقتي فقد  
يكون هذا المرح هو باعث شقائه ، ليكن اليوم غريبا وغدا  
يستأنس ثم تألفون طباعه الجديدة . فقاطعتني : إنك لا  
تفهمين ما أعني . قلت ، بل أفهم ، لقد تعودت منه الهدوء  
والجنوح الى العزلة واليوم جاءكم وبه جنوح الى الدعابة واللهو  
فقلت : المهم أن تأتي لترى بنفسك فأن الحقيقة مرة لا  
أقوى على إيضاها . قلت : إنك تقيمين من أسوار جهودكم  
قانونا لا حق لك فيه أو تريدينه عابسا مكفهرأ ؟ لا لا إنه  
رجل ولا بد له من الترفيه عن نفسه الكليمة ولا يريح النفس  
غير الدعابة واللهو ؛ ولست أعني به اللهو المجرم الطائش بل  
أعني به المرح البريء في غير استهتار أو عدم مبالاة ، قالت  
لست في حاجة إلى فلسفتك الساعة وقومي معي لأن والدتي  
مريضة وقد جاء ابنها بصاعقة أخشى أن تفقد نفسها معها .  
بعد ساعة كنا في منزلها وقد هالني سكون المنزل على غير  
ما كنت آمل ثم قادتني الصديقة إلى الوالدة فوجدتها شبه

مريضة وإن كانت تغالط نفسها وتحاول أن تصارع همها ،  
وبعد أن استقر بي المقام جاء الأخ باسم مهللاً ، لقيني بأروع  
مما ظننت ، فتوارت رغبتى خلف عواطفى ولم أبجل عليه بحية  
خالصة ، أما هو فلم يجب ، ولعله اكتفى بتقيل يدي فى  
سكون ، قلت فى نفسى : هذه أول ظاهرة غريبة وشئت  
أن أغالط أخته فقلت بنغم فكه : هذا ميثاق الشفاء أما زلت  
تذكر وديعتك ؟ فلم يتكلم وحاول إخفاء دمه فى مآقيه ، ثم  
قال بصوت كأنه آت من أعماق الوادى : إن أحسن ما أمتاز  
به هو ذا كرتى قلت : حفظها الله لك وجعلها مستودعاً لكل  
ذكرى طيبة قال : وذا كرتك ؟ قلت : عيى مركز فيها  
ولعل الله يوم كون مواهبي ، كونها على ألا ذاكرة ، قال :  
أحمدى الله على ذلك فلو كانت ذاكرتك قوية لكان لك  
شأن آخر قلت : ومن أدراك ؟ ومر بخاطرى طيف الخطيئة  
فاستطردت ، يهمنى أن تركز ذاكرتك على الواقع الجميل  
لتهيب بنفسك دائماً الى الحياة الوديعة ، وهنا بدأ أمامى

كالطفل يحاول ان يكتم أمراً في نفسه فتفضحه عيناه ،  
فأدركت ان هناك أمراً يخفيه ولم يفتح فاه بل انحنى أمامي  
بخشوع وخرج يجر ساقيه جراً ، والتفت الى الصديقة  
فوجدتها تحاول إخفاء دموعها فقلت ؛ أسمحين أن أساير  
أخاك برهة لأتعرف دخيلة أمره ، فتاملت وأرخت جفنيها  
في صمت ثم قالت في لهجة القانطة : لا يا صديقتي ! دعيه  
يتصرف كما يحلو له ، ونجأة دخل الأخ يتعثر وعيناه ترقبان  
الأرض وقد ارتسمت على شفتيه صورة ناصلة صفراء ؛ دخل  
وبجانبه فتاة أجنبية ناهزت الثلاثين من عمرها هادئة المظهر  
ثقيلة الظل ، ثم وقفت حياء ولعلها كانت تستطلع الحياة  
المصرية من عيني بنظرة عميقة فاحصة ، قدمها إلي وبوده  
لو يتراجع ! وفي مرارة فتح فمه كمن يحاول أن ينطق بحكم  
الأعدام وقال مشيراً إليها ... زوجتي ، فشمنا جميعاً سكون  
رهيب وكدت أن أفقد إدراكي لولا أن الله أدركني بقوة  
من لدنه ؛ فاغتصبت بسمة وواريت عواطفى وقلت في هدوء

أهنتوها ، فغمغم بصوت مرتجف يحفه العجب ؛ وحدها ؟  
فصمت برهة على مضض ، ثم قلت بلهجة الحزن والأسف  
المكبوح ... أجل وحدها ... أهنتوها وأعزيتك ، فغمغم  
أهذه تهنتك ؟ قلت : تهنة يحفها العزاء ، هل سمعت أو  
رأيت فرحاً نهايته قاتمة ، هناة نفسك ربما .. وعزاء شعب  
وظل نظري عالقا به والشرر يتطاير منه ؛ ونظرت الى  
الفتاة وكانت لا تعرف العربية وكلمتها بالفرنسية كلمة موجزة  
تشرفنا ، وانحنيت في تهكم لا في إجلال ولكنها ردت التحية  
في برود فخشيت ان ينالني من فرط الجزع ما يشوه جمال  
أحلامهم فاختطفت نفسي من بينهم وخرجت مسرعة وأنا  
اعتقد انني سأغدو قريبا حطاماً في حطام ، فكل خواطري  
كانت تحوم حول تصاريف القدر ، وخضوع الإنسان  
لحكم القضاء وتساءلت أترى ذلك التصرف قدر عليه ان  
يكون ضحيته ام تلك مشيئته التي اختارها لنفسه ؟  
قلت لنفسي عندما هدأت خواطري: وما عاقبة هذا الجنوح

الأليم . في غير حق مشروع وما لي أنا وغيري ؟ وهل خلت  
نفسى من الهم حتى أضيف إليها هماً جديداً . وتنفست  
الصعداء وقالت : يالك من شاعرة ! ...  
وهالني أن تهينني نفسي فوقفت أمامها قائلة : أنا للرحمة  
خلقت ، وإن مهمتى تخفيف البؤس ، ورعاية الشقى ؛ بيد  
اليمنى أمسح دموع المحزونين ، وبالسرى أفتح بصيرة  
المتقاعدين ... أنا صديقة كل منكود الحظ ، أنا خلقت  
للحياة ولم أخلق لنفسي .  
واطمانت لروحي وعادت الى مدامع الأسى ، ومر  
بخطارى طيف الخطيبة المغبونة ؛ آه ! لو أنها كانت فتاة  
طيش ودعابة ما جزعت لها ، فالرجال ينشدون هاته النواحي  
في كل مكان .. ولكنها فتاة قلب فوا أسفاه ! لقد استودعت  
الله آمالها وأودعت في ذمة الشيطان مصيرها .... !  
يا إلهى لم خلقت الرجاء في قلب المرأة ، و خلقت صولة  
الفناء ليثمر الخيبة والمرارة ؟ ! لم خلقت لها طريق الحرية

وسيرتها في طريق العبودية ؟ لم خلقت للرجل جناحين  
طويلين يحلق بهما في الفضاء كما يحب ويهوى على حين  
خلقت المرأة بجناح كسير فأقعدتها عن الهوى الطليق ؟ لم  
وضعت في حنجرتها أوتار النغم الطروب ، وقيدت فاهها بالنغم  
الحزين ؟ لم علمتها العطف وقيدتها بالضعف ؟

رحمك يارب فقد خلقتها قوية رحيمة شفوقة محبة !  
- لست أكفر - ولكن النظم والتقاليد غير المشروعة .  
علمتها الضعف والاستكانة ؛ والتردد والمواربة ، كما قيدتها  
بأغلال عتيدة ، وكل من حطمت أغلالها على ضوء الحق  
والواجب كانت في شرعهم مجرمة أثيمة ! لست أريد أن  
تستهتر المرأة وتلهو ، ولست أرمي أن تتلاعب بعطفها وحبها  
وتقذف بهما كما يرجو هواها ، ولكني أريدها ذات كبرياء  
وأنفة ، وأن تصون قلبها ولا تفتحه إلا لمن يقيم له صلاة التعبد  
والإيمان ، ويعرف أن الصلاة فيه صلاة للخالق .  
ولست أريد أن تماثل الرجل قوة أو تراحمه في ميدان

عمله الخارجى لغير غاية لاجئة بل أريد لها الحياة الكاملة  
السامية فى بيتها إن كانت أما ، والعمل الشريف لمنفعة  
وطنها إن دعتها الرغبة الى العمل . أريد لها السمو المطلق  
فكيف جمالها بروعة روحها ، وتكمل روحها بسحر تثقيفها  
وتوسع من ثقافتها بدوام دراستها عن طريق الفكر  
الخصب والاطلاع الواسع ، وبالجمله فأنى أريدها مرتفعة  
بنفسها إلى أسمى مراتب الجمال ، محلقة بروحها فى سماوات  
الكمال ؛ لتشعر الرجل الحياة الحققة فى كنف بيتها المنظم  
الجميل ؛ وتشعر العالم بقدرة المرأة وقوتها على الأنشاء والتعمير !





حدثت في منزلنا حركة غير عادية وبعد التقصى علمت أن هناك سكاناً حديثين فدفعني حب الاستطلاع الى معرفة ما يمكن معرفته عنهم . ومرت بعض الأيام دون أن أعرف غير اسم الزوج ، أما اسم زوجته فلم أعرفه ، وبينما أنا صاعدة على الدرج عصر يوم حانت منى التفاتة ، فإذا بفتاة قد عرقها من قبل ، هى بعينها الخطيبة . تحيرت في أمرها أتكون زائرة أم صاحبة المسكن الجديد ؟ وصاغتني فلقيتني لقاء حاراً لا شائبة فيه . وفرحت كثيراً حينما علمت أننا نقطن منزلاً واحداً وتراورنا بعد ذلك وتأكدت بيننا عرى الصداقة ، وسرني أنها سعيدة في زواجها موفقة في حياتها وأن زوجها الطيب يحبها حباً لا نهاية له ، ويعمل ليلاً ونهاراً على راحتها وإسعادها وهو كما تعترف طيب القلب صافى النفس له مكانة بين قومه ، وأظنها نسيت ماضيها فلم تحدثني عنه كما

حاولت أنا أيضا تناسيه ، وكم أشعر بالسعادة الحقة عندما أراها  
في بيتها مقبلة مدبرة ، راضية عن دنياها ، تسعى جهدها في  
سعادة زوجها وتخلص له الحب ، وتبادل له الوفاء . لقد أدركت  
من سلوكها أن المرأة إذا واتاها الحظ برجل يحبها ويعمل على  
إسعادها أهاب بها ذلك للرضا النفسى فتمنحه ودأبود واخلصا  
بأخلاص ، وتخلق له من دنياه المحدودة دنيا من السعادة لا  
نهاية لها ، وحمدت الله الذى جعل آخرة دنياها أفضل وأجمل  
من الأولى ، ومرت الأيام آخذاً بعضها برقاب بعض ، وفي  
صبيحة يوم دخلت على الخادم معلنة قدوم صديقتي القاطنة  
بالمزىل فراغني اصفرار وجهها وفاجأتني - وقد أنساها الحزن  
على ما أظن السلام على - قائلة : هل جاءتك ؟ تعنى الصديقة  
شقيقة خطيبها بالأمس ، قلت وقد تملكنى الاضطراب الجازع  
لم أرها منذ أسابيع ، فاستوت واقفة والدموع تنهال على  
وجهها في غير تمهل ثم فرت من أمامى وأخذت أسأل نفسى  
ترى أين ذهبت ؟ لقد ساقها الحب الى ... بلاريب ! ولكنه

تصرف شائن . وتملكنى الهم والقلق طوال اليوم ، وفى المساء ذهبت إليهم مستعامة عنها ، فعرفت أنها لم تعد ، وأنها خرجت فى الصباح وهم نيام ، على غير سابق إشارة أو إنذار . ودخل على الأخ وأنا أحادث الوالدة فوقف أمامي فى هدوء ؛ وهذه أول مرة ألقاه فيها بعد زواجه . وما كاد نظرى يقع عليه حتى وارى نظراته خلف بسمته ، واستويت واقفة وقد تملكنى شعور غامض حزين ، وبدالى أنه لا يمتاز عن المجرم بشيء ، فعليه تقع جريمة الأخت ، إن كان ثمت جريمة ! ولكن الوالدة حملتني برجائها على المكوث قليلا لأنها تكاد تجن من هول الصدمة ، أما هو فانشي أمامي وقال بصوت الشائر : فى أقرب وقت سأعرف مقر وجودها ، وستنال عقاب هذا المسلك المعوج . قلت وأنا أوارى همي : ولكنها لا تستحق ! فزاد غضبه وقال : أتقرين هذه الخطيئة ؟ قلت : وهل تظن أنها خطيئة ؟ قال : نعم ، قلت : اهدأ أولا ، ثم فكر فى علة تصرفها ؛ قال : لاسبيل لغفران جنايتها ! قلت

إنها لم تكن ذنباً ، كل ما فعلته أنها تنتقم لنفسها قال : تنتقم ؟  
بالعجب ! ومن ؟ قلت : يبدو لي أنك أسأت إليها قال :  
أنا ..؟ محال ! قد حائطت على كرامتها وشرفها . قلت :  
إنها ليست من الطيش حتى تعجز عن صيانتها فقد ناهزت  
العشرين وفي مقدورها أن تكيف حياتها عن طريق عقلها  
وبدت الوالدة غير مرتاحة لهذا الحوار ، لما كان يبدو من التأثير  
على وجهها الحزين وكأنها أرادت أن تضع حداً لحديثنا  
فقالت : قم فاذهب الى بعض أقاربنا أو صواحبتها ، فعساك  
أن تلتقي بها هناك ، فضحك الأخ في تهكم لاذع ثم قال : إنها  
ليست هناك ، إنها عند فلان بلا شك ، على أنى بعد ساعة  
سأعرف مقرها وأنا هنا لم أبرح مكاني فاطمئني ، ولكن  
أستطيع الأم أن يطمئن قلبها لهذا الكلام ؟ قلت قد فهمت  
من قولك أن هناك صلة بينها وبين فلان هذا ، فأطرق  
برأسه وأشار بعينه ؛ أي نعم ! فاستطردت : أو كنت  
تعلم ؟ قال : بل طلب يدها فرفضت ، قلت : ولم رفضت ؟

لأنه يلعب بقلوب العذارى ! قلت : ولكنك تزوجت وصلاح  
أمرك بعد الزواج فيما أظن ، فنظر إلى نظرة خاطفة ، وقال :  
ماذا تعنين ؟ قلت : أعني أنه على طرازك ، والذي أباح  
لك الزواج ؛ أباحه لغيرك فقال في تهكم : إن حمية الدفاع عن  
ابنة جنسك تشوه جلال الحق . قلت : أنا - ها ها ها ها ... !  
أنا ؟ قد أكون .... أو تعرف الحق ؟... لو أنك تعرفه لما  
عودت نفسك ظلم غيرك وأهلك ؛ يا إله السماء . أي دين  
من الأديان يحرم الزواج العاطفي ، ثم ازداد صوتي صرامة  
وقوة وأردفت : يا للظلم ! وهب الله الوالدين سلاح الرعاية  
فاستبدلاه بسلاح التقييد ، أو ليست الحياة الزوجية إلا حياة  
ائتلاف وتعاون ، فلم ترغب المرأة على هذا الائتلاف ، وكيف  
ينتظر منها سعادة وهي تشقى تحت نير أحزانها وحرمانها ،  
كيف تطالبها بالعدل وهي تسام العسف ، وكيف تمنحها  
النور وهي تسير في الظلام ؟

من لى بمن يسن تشريعاً إجبارياً يهيب فيه بالآباء إلى

رعاية عواطف بناتهن واحترامه ميولهن ؟ نعم يجب أن يعمر  
قلب المرأة بالحرية ، ليهنأ الرجل بالحياة الجليلة ؛ وإن امرأة  
واحدة مظلومة لتجر على البلاد ذيل الشقاء ، فامنحوا للمرأة  
الأنصاف والرحمة تعطيك الحياة مفخرة عن أعذب البسمات !  
وهنا بلغ مني الألم مبلغاً ، فصمت قليلاً على حين جلس هو  
مطأطئ الرأس تبدو عليه الكآبة الخرساء ، وشئت أن  
أزيد همه فاستطردت : والله لو استطاعت المرأة أن تنزل على  
الرجل غضب السماء لما تهأونت . فاعتدل ، وبصوت متلثم  
قال : ولكنها من حسن الحظ رحيمة ... ! قلت : وهذا  
عيها ! أجل عيب المرأة في رحمتها وعطفها وجهها الجم ،  
فازداد اصفرار وجهه وقال بصوت مرتجف : لو كانت  
المرأة كذلك ؛ لكانت الحياة جنة خلد للمخلصين ولكنها  
والأسفاه لا ترعى حرمة الحب ، بل هي تستغل عاطفة الرجل  
ووفاءه لتستعبده ! قلت : إنك تتكلم بلسان رجل يلعب  
بقلوب العذارى على حد تعبيرك ، وهذا الرجل يجب أن تقيم

المرأة سداً منيعاً بينها وبينه ، هذا أنت ! أو تستحق حب  
امرأة ؟ لو كان قلبك يحقق بحرارة لعرفت كيف تحترم  
العاطفة على الأقل ، قال : لعل صرامة الحب علمتني كيف  
أتحداه ! قلت : ولكن الحماسة الوديعة جبلت على الخضوع  
لحكم العاطفة مهما أساءت إليها ، أما النسر القوي فسعادته  
هي الكفاح في سبيل ما لا طائل وراءه ، وياليتك كفاح يمت  
إلى الفضيلة بسبب !

لقد نسيت حزن الوالدة ولم ينبهني إلا ما أصابها من إغماء  
فقطعت الحديث وتحولت إليها أرفه عنها ثم استأذنت على نية  
أن أذهب ، لأبحث عن الصديقة عند صواحبها ، وذهبت إلى  
كل من تعرفها كزائرة ، محاولة أن أعرف مقرها ، ومرت  
الأيام تتبع الأيام والصديقة تتقاذفها دنيا مجهولة ، وأسرتها في  
أشد حالات الألم والحزن والقلق ، وأخيراً وصلتهم رسالة منها  
تنبئهم أنها عند خالة لها في بلد بعيد ، كما وصلتهم رسالة من  
خالها تخبرهم فيها بمرض الفتاة ، وبضرورة الحضور .



وبعد أن سافرت الأم لحق بها الأبن ، وكان هناك حبيب  
الفتاة فقام بينه وبين الأخ شبه عراك نقاشى أدى فى النهاية الى  
الخضوع لمشيئة الأخت ، وعادت معهم وتم زواجها ، وذهبت  
يوما إليها لأهنتها ، فلقيتها على أحسن صورة أرجوها لها ، كما  
وجدتها فرحة الى أقصى حدود الفرح ، تود لو يفيض سرورها  
على العالم بأسره ، ولما خلوت بها ، حدثتني عن سعادتها وآمالها  
فلمحت ظاهرة الحلم تسيطر عليها حتى أنستها الواقع الرهيب  
واقع الحياة المنزلية الخطرة ، ولم أر غضاضة فى مصارحتها بما  
فى نفسى فقلت : يا عزيزتى يهمنى أن تقفى حياتك على إدراك  
الواقع فتفرقى بين متعة الخيال ، وحقيقة الواقع ، فأنت ترين  
أن طبيعة الزوج أو الزوجة ، غير طبيعة الحبيب أو الحبيبة  
فالأول يكيف كل شىء بعقله والثانى يكيفه بقلبه ، وشتان  
ما بين العقل والقلب ، ومهمتك الآن تركيز أخيلتك على محط  
عقلك ، لتعرفى كيف تصونين نفسك ، واذكرى دائما أنك  
قد ولدت من جديد ، فمن الخير أن تأخذى من الحياة بقدر ما

يسمح به ذهنك الكبير ، وحاولي أن تكوني لزوجك كما  
يجب أن تكوني له ، واسعي جهدك في استبقائه بجوارك ،  
راضية عن نفسه وعنك على مدى الأيام ، ولا بد أن تخلقي  
كل يوم في بيتك منهاجا جديداً يشعره بتجديد الحياة ، فأنها  
لعملية تحتاج لمهارة ؛ ثم حاولي الأشراف دائماً على مهامه  
بنفسك ؛ ليشعر بالسعادة الحقة بفضلك ، وحاذري أن تفتحي  
قلبك للشك ، إذا بدا منه ما يريبك في حياته الخارجية ؛ فما  
فيها من متاعب وعنت كاف لأرهاقه ، فلا تضيفي الى همومه  
هماً ، أو الي متاعبه تعباً ، وانظري إليه دائماً بعين صافية لا  
يشوبها ملل ولا سأم ، فذلك أدعى الى إشباع قلبك وإسعاده  
ووطني نفسك على أن تحرصي على سعادته وهناءته ، وثقي أن  
هناك فارقا بين اليوم والغد : إن دنيا اليوم هي دنيا الأحلام  
والخيال ، ودنيا الغد هي دنيا تحقيق الآمال . ثم حاذري أن  
تخلطي بين تصرفك الطائش وذهنك الناضج ، فاسبلي  
الستار على ما فعلت حتي ينساه زوجك ، فقد يذكره عندما

يفيق العقل من النشوة ؛ وقد يعظم الأمر في ناظره ، فيدرك  
سوء تصرفك فيحز ذلك في نفسه .

ولقد كنت أعلم ما قام بسبب هذا الزواج القهرى ،  
من النفور المكبوح بين زوجها وشقيقها ، فخشيت أن يؤثر  
ذلك - لو دام - في علاقتها بزوجها ، فقلت : يجب أن  
تذكرى أن عاطفة الرجل تختلف باختلاف تصرف المرأة ،  
فاتهزى دائما أوقات الصفو بينك وبين زوجك وشقيقك ،  
واعمل على التقريب بين وجهتى نظريهما ما استطعت ،  
مستعينة على ذلك بما كان بينهما في الماضى من أواصر المحبة  
والأخاء ، فعلى ذلك تشيدين صرح سعادتك الزوجية ،  
وتجبرين كليهما على زيادة محبتك واحترامك ؛ وبهذا تضربين  
أحسن الأمثال على يقظة المرأة المصرية ، ولباقتها فى تأدية  
رسالتها ، رسالة الألفة والتعمير والأنشاء . وكأنت هذه  
الصراحة لمست منها موضع الداء ، فتماملت ثم قالت : لقد  
حاولت فى ذلك جهدى ، واستعنت بكل من تحسن الاستعانة

بهم ؛ حتي لا وشكت أن أفشل ؛ قلت : تفشلين ؟ لا لا !  
أرجو ألا تسميني هذه الكلمة الخائرة مرة أخرى ، فالمرأة  
التي تهز المهد يمينها ؛ لا تزال تهز العالم يسارها ، يجب  
أن تعملی ! يجب أن تعملی !

عرفت الصديقة كيف تهیء منزلها الجديد ليظل أبداً  
عامراً وعملت على تحقيق آمال زوجها وأشعرتة السعادة  
الحقة والنعيم المقيم . أما هو فقد جعلها خاتمة الحبيبات كما جعل  
الله محمداً خاتم المرسلين . واتخذ منها الأخت والابنة والصديقة  
والزوجة والحبيبة ، ونسى دنياه بها ، وراح يهیء لها من لدنه  
عرشاً وطيداً من الراحة الأبدية تتكىء عليه . وقامت بدورها  
في أشباع رغباته المعنوية والحسية وأثبتت له أن المرأة  
بأخلاصها وتضحيتها كفيلة بأن تهیء لزوجها دنيا مليئة بالنعيم  
والغبطة والسرور !

وما دامت الميول بين الشريكين موحدة ، والعواطف  
متبادلة والرغبات متقاربة ، فالسعادة محققة . ولقد زرتها يوماً

فأحسست أن السعادة تسرى منها الي ، وشعرت أن ضوء  
الهناء يشمل يتيها حتى صورتها ؛ رأيتها ازدادت فتنة وسحرا  
وجالا ، واكتمال أنوثة . ولعل ذلك من فرط عنايتها بنفسها  
وصحتها وشئونها ، مرضاة لزوجها .

ونجأة جاءها شقيقها على غير موعد لزيارتها ، وكانت  
الأيام قد مسحت من ذاكرتي صورة الأيام الخوالي ؛ فلقيته  
كغريب لا عهد لي به ، ولا يهمني أمره ؛ ولا يعنيني شأنه  
ولكن شحوب وجهه ، ونظراته الساهمة ؛ وصوته الخفيض  
كل أولئك شف عن حزن مكبوت ... ! ولما تهيات  
للانصراف استوقفني قائلا : لي معك حديث . قلت وكأنه  
لا يعنيني : أمسيت بالخير يا صديقي ، ولكنها قالت : أخي  
يدعوك ! قلت في عجب : أنا ؟ أنه يعينك . قال : أعني  
حضرتك . قلت : « أفندم » !

فأجلستني الصديقة في رفق ، ثم انصرفت لبعض شأنها  
على ما أظن ، وشئت أن ألحق بها ، فاستوقفني وقال :

أتذكرين الماضي ؟ قلت : لا أذكر غير ساعتى ، قال فى  
نعم التوسل : ولكنى أرجوك ألا تستسلمى لخيالك . قلت  
عندما تخوننى الذاكرة ينمو معها الخيال والفكر وكل شىء  
قال : دعينى إذاً أذكرك . قلت : ليس هناك ما يدعو ،  
وهممت بالانصراف ، إلا أن الأخت دخلت وحملتني على  
الجلوس فاستطرد : أنت تعرفين أننى سافرت بغير قلب  
وقد سلبتنيهِ ؛ ولعل الله شاء إنقاذى بعد أن فتح لى الموت  
ذراعيه ، فأرسل لى هاته الفتاة ترعانى وتخدمني ، ولما كنت  
واثقا من أن المنية سوف توارينى ، لم أبخل عليها بشبه ود  
جزاء فضلها ، وشاء الله أن أعافى ، وشاءت هى أن تحبنى .  
وقضى القضاء أن أتزوجها !

صدقيني لست أدرى كيف حدث ذلك ؛ وكأنى كنت  
فى غفلة عميقة ؛ صحت على أثرها فوجدتني فقدتك فبكيت  
فراقك وسوء طالعى . إنها رحيمة لست أنكر ، فقد سهرت  
على مريضاً ، ورعتنى سقيماً ، فأنت ترين أنى مدين لها بحياتى

كان يتحدث بينما كنت أداعب منديلي أنا، وحقبة يدي أنا  
آخر؛ وكأني عنه لاهية، إلا أن كلماته كانت تحز في سمعي !  
وبعد صمت قلت : وماذا يهمني أنا من هذا الحديث ؟ فقال  
بصوت حزين : أريد أن يهملك ؛ أعني أريد أن تفكرى  
بفكرى ، فقد عانيت من الهم ما لا قبل لى على احتماله !  
قلت في سخرية : ولم ، وتلك مشيئتك ورغبتك ، وكيف  
تتألم من تصرفك ؟ قال : لا تضيفى الى همومي المتكاثرة هم  
قسوتك ، فقاطعته الأخت : رفه عن نفسك فلا شك أن الله  
سيجازيك خيراً ؛ فقد أحسنت بتخليك عنها . فذعرت وقلت  
تخلي عنها ؟ كيف حدث ذلك ولم ومتى ؟ فقال : نعم منذ  
أسبوع ، وقد غادرت هاته البلاد ، قلت وقد ملكنى الحزن :  
يا ظلمك ! قد تحملت المسكينة فى سبيل تمريضك كما تقول  
كل شىء ؛ فهل هذا جزاء الأحسان ، فأجاب بصوت  
مذبوح : لقد شوهت كرامتى ، وهتكت شرفى ، وتلاعبت  
بعواطفى ، وقضت على مالى ، وجعلت اسمى مضغة الأفواه



وقد أحزنني نبؤه ، وإن كنت تظاهرت بالرضا ، وقلت :  
هذا نتيجة تصرفك بلا مراء ، قال : الآن أدركت !  
قلت : لقد تعودت من الفتاة المصرية الجمود ! فليس  
بعجيب أن تمنى من الغريبة بالأباحية التي ساقها لك عن  
طريق الرعاية والحب ، وانه حب زائف ، ابتدعته وحاكته  
بعمارة ، وفاتك أنها ما فضلتك على أبناء جنسها لهوا ولعبا !  
ولم لا تفضلك وهي تأخذ من المال ما ترجو ، وتلهو كما يحلو  
وتتسيطر عليك وعلى أمثالك تسيطرأ لا حد له ، حتى إذا  
عرفت أن يدك صدأت وان جيبك قد خوي ، لفظتك  
واجترتك ، وأنكرتك وأشقتك ، هذا إذا لم تتركك مضرجا  
بدمك : والآن هل عرفت كيف تفرق بين حب الفتاة  
المصرية والغريبة ؟ إن الأولى تحب الرجل لذاته . والثانية  
تحبه لمادته ! إن الأولى تحبك زوجا . فقيرا أو غنيا ، وسيما  
أو دميما . أما الثانية فتعشقك غنيا وسيما . انها تحب فيك  
رغبتها وشهوتها ، وشتان ما بين العاطفتين ، لقد تقدم إليك

الحب الأول باسطاً إليك أجنحة من السعادة عن طريق  
فتاة مصرية طاهرة بريئة ، فغدرت بها دون ذنب ، فشاء  
القدر أن يجازيك شراً بشراً ، وغدراً بغدر !

ولم يدعني أتم قولي ، بل قاطعني قائلاً : لو رأيت الفتاة  
الأجنبية في بلادها كيف تدير بيتها ، وتربي أولادها لعجبت  
هي تجعل من بيتها فردوساً مليئاً بالمتع مع الاقتصاد الوفير ،  
وذلك عكس الفتاة المصرية التي تسرف في مالها ومال زوجها  
لتشبع رغباتها ، ومع ذلك لا توفق في إدارة بيتها كما تعجز عن  
تركيز حياتها وذلك هو ما خدعني وأغرائني بهذا الزواج ، ومع  
ما نالني فيه ، فأنى لا أنكر حسن تدير المرأة الغريبة لبيتها  
فتملكني الغضب وآلني اعترافه فقلت : أتريدون  
لأنفسكم السعادة على أنقاض وطنكم المذبوح أيها الأثرون ؟  
وهب الفتاة المصرية كما تقول سيئة التدبير ، أفعجزتم أو  
عجزنا عن الإصلاح ؟ إن المرأة الغريبة تعلمت الاقتصاد ،  
وحسن التدبير ، عن طريق أيها وأخيها ، فالرجل هناك لا

يقامر بماله في سبيل الملاحى والمراقص ، ولا يضجى بعصارة  
مواهبه قرباناً على مذبح الأغراق ، ولهذا تنشأ الفتاة الغربية  
نشأة اقتصادية منذ الصغر !

وحسب الرجل المصرى فخراً أن يضجى بشر من  
وقته في سبيل إصلاحها ، فمنه وحدة تنتظر المغامرة في سبيل  
الأنقاذ ، ثم هبك تزوجت فتاة جاهلة ساذجة ، أو لفس في  
مقدورك ترويضها على ما تحب وتهوى ؟ وهبها كانت  
متعجرفة ؛ أفلا يكفى قليل من حكمة الرجل ، ليكفكف  
من غطرستها ، ويفل من حدتها ؟

ألا فلتعلم أن شعورك باليأس من مستقبل الفتاة المصرية  
وإصلاحها لا يستند على شىء ، وأن هذا الشعور الذى يغرى  
بالنوم عن الأخذ بيد الفتاة الى حيث مركزها الصحيح من  
المجتمع ، ليسىء الى وطنكم ، ويشوه من جلال جهادكم ، وإنه  
لسوف يعطى عنكم لأبنائكم ، أسوأ الأمثال ، على أنكم  
كنتم تميلون الى الدعة والخنول ، ولا تجشمون أنفسكم عناء !

وإن الفتاة المصرية ، طالما ناشدتكم ؛ أن تدفعوا بها في سبيل  
النور ؛ فقدتم بها في مجاهل الظلام ؛ وأن تعلموها كيف  
تسمو وترقى في سماء الحياة ، فقصصتم جناحيها وأسفتم بها  
الى الحضيض !!

ولست أدري الى متى تسومون المرأة العسف ، وعلى  
شفاهكم بسمات الدعابة ؟ لا أعرف حياة مشوهة أضل من  
حياتكم ؛ لقد تأفتم من المرأة السجينة . وناديتم بالحرية  
وطالبتموها بالثقافة العلمية فلبت نداءكم ؛ ونالت من التعليم  
والثقافة والفنون حظا يغبط عليه ؛ ولكن سرعان ما زاغت  
أبصاركم في الفضاء تملقون بأجنحة الغرور الكاذب ، والوهم  
الفاسد ، وبقيت العذارى في طريق الحياة حيارى : ...  
ياسبحان الله ، ما بال صوتكم لا يكاد يبلغ حناجركم حتي  
يرتد في جنبات ضمائركم حائراً ؟ وبينما أنا أندفق في ثورة  
المؤمن قاطعني قائل : والآن .. ؟  
قلت : والآن لهف نفسي على « الطائر الحائر » يتردى

بين المعاطب والمخاطر ؟! إن الريح تعصف ولا تحاذر ،  
والغصن يتكسر دون كاسر ...!!

لهف نفسي على العذارى ، يتعذب تحت نير الظنون أسارى  
رموهن بالشوائب جهارا ، فاتخذن الحرمان لهن شعارا ؟!  
قال : ولكنك ، قلت : ناقة عليك وعلى الرجال جميعا من  
أجلك ! قال : ولكنك أخت عطف ، قلت : على المغبونين  
لا الغابنين ! قال : وأنا منهم .

فضحكت في تهكم مرير ، وقلت في عجب : أنت ؟  
إنك لقوي جائر ، ولكنك وأسفاه لا تحجل من أن تصف  
نفسك بما ليس فيك ، طمعاً في الوصول إلى غايتك ، ثم  
شعرت بالثورة تكاد تعصف بكياني ، والأسى يوشك أن  
يفعم نفسي ، فاستويت واقفة ، حيث ودعت الأخت وألقيت  
عليه تحية عجلي ؛ كأن لم يكن بيننا تعارف من قبل !

\*  
\* \*

ومرت الأيام سراعاً ، وحالت شواغلي دون زيارة الصديقة  
وانتقلت أسرتنا الى بلد آخر ، فانقطعت عني أخبار الصديقة  
وشقيقها ، وأسدت أنا أيضاً الستار على هاته القصة ، فلقد  
سئمت نفسي مناظرها المتناقضة ؛ وحوادثها المثيرة .  
ولقد مر على عامان ، وأنا ساكنة الى دنيائي ، راضية  
عنها ، لا يشغلني من هم هذه الحياة إلا هم نفسي ، حتى  
اضطرنى الحر اللافح ، الى النزوح الى المصيف ، ترويحاً  
للنفس وطلباً للاستجمام والحياة في المصيف غيرها في كل مكان  
إنها حياة فرحة مريحة ، يكاد يفضل اليوم فيها عاماً بما يتوالى  
على مسرحه من كثرة المرائي وتباينها وشدوذها ، هذا الشذوذ  
الذي ينجم عن اختلاط الطبقات ؛ واجتماع المتناقضات ،  
ولقد وقفت على الشاطئ في أمسية من أمسيات  
الصيف الرائعة ؛ أشاهد الشمس وهي تهدف الى الماء ملقية  
بنفسها ، بين أحضان إله البحر ، الذي يودعها في الصباح  
ليلقاها في المساء . كما وقفت أتأمل الأمواج . تتجمع من بعيد

كالجبال . ثم تتراعى على أعطاف الصخور ، فأذا هي مستجيبة  
الى رشاش سنى . وبيننا أنا أشبه فى نفسى فعل الأمواج مع  
الصخور ؛ بالأم تغضب على ابنها ، ثم تهتم لتعنفه أو تؤذيه  
فلا تكاد تقترب منه حتى تستحيل هذه الغضبة . الى رشاش  
من الرحمة والحنان . ووميض من الأشرار والابتسام . أجل  
بيننا أنا مأخوذة بروعة البحر ، وجلال مشاهدته ؛ طرقت  
أذناى عن قرب ضحكة ساخرة ، يوقعها صاحبها على أوتار  
الخلاعة والاستهتار ، فالتفت ورأى ، فأذا بى أواجه فتاة  
جملتها يد الصناعة ، تسير الهوينى بجانب رجل هزيل الجسم  
شاحب الوجه . لقد عرفته .. إنه « الطائر الحائر » صديق  
الأمس . واستدرت بوجهى ثانية الى البحر ، كأنى لا أعرفه  
ولكنه عرفنى كما بدالى من نظراته . ولعله خجل أن يحدثنى  
ومعه رفيقته . وحمدت الله على أن تعود الاعتداد بالنفس ،  
الا أنى لم اكدها انتهى من وقفى ، وأخطو الى الأمام منصرفة  
حتى طلع على ذلك « الطائر الحائر » منفرداً ، وبادرنى بقوله



أأنت هنا؟ فأجبت في جفوة : نعم ، ثم أسرعت الخطأ ،  
وتركته جانبا !

وفي مساء اليوم الثاني ، عدت الى مكاني على الشاطئ ،  
وبينا أنا مستغرقة في تأملاتي وأحلامي ، لقيتني أخته لقاء  
حاراً ، وأفهمتني أنها علمت بوجودي من أخيها ، وأنها قد  
بحشت عني هنا طويلاً ، وبعد أن خضنا في ألوان من الحديث  
وضروب من الذكريات ، حدثتني في مرارة عما آل اليه  
حال أخيها من سوء ، وأن يأسه وبؤسه ، قد ملأ فراغ قلبه ،  
وأنه قد برز بالحياة والعمل ، كما انقلب مستهتراً ، استهتار  
من يود بعثرة وقته على أية صورة ! كانت تتكلم من أعماق  
قلبها ، والدموع تطفرف في غير إمهال ، فخرنت حقاً لحزنها  
وتصورت مصير شقيقها رهيباً !

يا لله إن نكبة المجتمع الخلقية ، تتولد من قنوط شبابها  
إن الشباب لا يسف ، ولا يستسلم لنزوات نفسه الأمارة  
الا اذا جفت دونه مناهل الخير !

إنه مرض بلا مرأى ، ولكن مصدره سوء تصرف الشاب  
وجنوحه الى الحيرة العاطفية ، والقلق الوجداني ، فلو أنصف  
الشباب نفسه ، لركز خواطره وأحلامه على محط الواقع ،  
وحكم قلبه وعقله معاً في تكييف حياته المستقبلية ، ولا سبيل  
إلى سعادة الرجل إلا إذا تسامى عن الرغبات الجامحة . ولو  
علم أنه ليس وراء العبث العاطفي ، إلا كل شقاء وفقدان  
للرجولة العزيزة ، لكف عن هذا الأسفاف !

وشاء ذلك الشقي إن ينتقم من المجتمع ، الذى قوض  
صرح سعادته ، وأتى على آماله ، وأصابه فى صحته وماله .  
وكثيراً ما يدفع الأخفاق فى الحياة الأشقياء الى الكنود  
والتمرد - فراح ينشر على صفحات بعض المجلات كلمات هى  
عصارة ذهن خرب ، لعبت على مسرحه أباطيل عمر طويل  
وظل يكتب عاصفا بالأنوثة ، هاتكا حرمتها ، مشوها  
كرامتها ، معتقداً أنها سبب هذا الانحلال الخلقي ، طالبا  
من المجتمع ، أن يبتدع شريعة تجيز مساواتها بالرجل فى كل

شئ حتى يسرى عليها العقاب ، إذا عصفت بقلب ، أو  
أشقت رجلا عن طريق إغراء كذوب أو خداع مرغوب !

قد يكون لهذا الشق العذر فيما ذهب اليه من آراء  
غريبة ، لأن المرأة هي التي قذفت به من حلق في هذا  
الأتون المستعر ، وقد لا يكون له أى عذر ، لأنه لم يعرف  
كيف يوجه عاطفته ، كما ترجو الأوضاع الصحيحة ، ولم يدر  
كيف يمخر بسفينه في عباب الحياة !

لقد ظل الطائر يسف تارة ، ويخلق أخرى ، متنقلا  
من فنن إلى فنن ، بين وهاد الحياة ونجاحها ، حزنها وسهولها  
وستمضى سنوه ، وتعبه موجة الأيام ، وهو كما هو « الطائر  
الحائر » الذى يضرب فى مهمه هاته الحياة بجناحين خفاقين  
حتى يشرف على الغاية ويبلغ النهايه ، فيلقى عصاه ويستريح !



## ❧ تصويبات ❧

| الصفحة | السطر | الخطأ       | الصواب        |
|--------|-------|-------------|---------------|
| ٢      | ١٢    | مزهرا       | مزهوا         |
| ٦      | ٩     | وطلبت أن    | وطلبت منها أن |
| ٧      | ٣     | مضجعة       | مضطجعة        |
| ٢٢     | ١٠    | قد تظهر     | قد تطهر       |
| ٢٧     | ٨     | ما شاء الله | حاشا لله      |
| ٣٦     | ٣     | إذا أميل    | إذ أميل       |
| ٤٦     | ٧     | لم تنل      | قد تنال       |
| ٤٧     | ٧     | تحدد        | تتعدد         |
| ٥٦     | ٩     | يختلط       | يخالط         |
| ٦٦     | ١١    | يكون        | تكون          |
| ٧٤     | ١٣    | ترتفع الى   | ترتفع بي الى  |
| ٧٤     | ١٤    | ويطائن      | ويطمئن        |
| ٧٨     | ١٥    | وقفت        | وفقت          |
| ٨٧     | ٢     | صرامة       | صراحة         |
| ٩٠     | ٢     | شقاؤه       | شفائه         |
| ١١٦    | ٢     | انتقلت      | انتقلت        |
| ١١٤    | ١٣    | اندفق       | اندفق         |

## شكر

نشكر للأخوين النشيطين مصطفى ورياض محمد العادلى  
صاحبي مطبعة ومكتبة وادى النيل بميت غمر ، ما لقيناه منهم  
أثناء طبع هذه القصة ، من حسن المعاملة ، والمحافظة على  
المواعيد ، والعناية بنظافة الطبع ، حتى خرجت القصة فى  
هذه الحلة القشبية بفضل مجهودهما المشكور

المؤلفة